من مكارم العلم والعلماء (٢)

مِيمِيَّةُ

القَاضي أَبي الحَسَن الجُرجَانِيِّ

في إِبَاءِ العَالِمِ وعِزَّةِ طَالِبِ العِلمِ

تشرَّف بشرحها، والعنَاية بها

أبو العبَّاس الشحري

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي شرَّف بالعلم أهله، فجعلهم ورثة الأنبياء، ورفع مقامهم عنده؛ فهم الأولياء، وجعلهم هداة للنَّاس؛ فهم نجوم السَّماء .

وأخبرَ – جل وعلا– أنَّهم أهل عبادته، والمختصُّون بخشيته، وهم أعلم النَّاس به؛ ولهذا جعلهم على النَّاس شهداء .

وصلَّى الله، وسلَّم على مَن بُعث بالهدى، والعلم؛ فأنَار برسالته دُجى الجاهليَّة؛ فأصلح به من شاء من البشريَّة، أرسله ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾، ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾، وهما العلم النَّافع، والعمل الصَّالح؛ فأيَّد بهم دينه تأييدًا .

كما قال تبارك وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٢٨﴾ [الفتح] .

أمَّا بعد:

فيقول الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾ [البقرة] .

قال الإمام الجليل أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠) – رحمه الله تعالى– في تفسيره :

«يعني بذلك جل ثناؤه: يؤتي الله الإصَابة في القول، والفعل من يشاء من عباده، ومن يؤت الإصابة في ذلك منهم؛ فقد أوتي خيرًا كثيرًا» انتهى .

وقال الإمام أبو عبد الله الشافعي (ت٢٠٤) – رحمه الله تعالى– :

«**الشِّعر كلامٌ حسنٌ، حسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام، غير أنَّه كلام باق سائر؛ فذلك فضلُه على الكلام**»[١] انتهى .



وبَين يديك تعليقٌ مختَصرٌ، وشرحٌ مُوجزٌ لأبياتٍ بارعة الجمال، لطيفة الدَّلال، فائقة الحسن والإتقان، عظيمة النَّفع والإحسان، سارت بها الرَّكائب النَّجائب، وحفظها من النَّابهين على مرِّ الزَّمان كلُّ مُوفَّقٍ نجيبٍ طالب[٢] .



وسرُّ ذلك أنَّها طَرقت بابًا هو من أدقِّ مَسَارب[٣] النُّفوس، وهو بابُ :

سُموِّ نفس (طالب العلم) التَّقيِّ، وعزَّة كبرياء العالِمِ الأَبيِّ .

واستغنائهم عن دُنيا الدَّانين، وزُهدهم في مجالس الكُبراء والسَّلاطين، وعدم استشرافهم لأموال الأثرياء المُثرين، وصيانتهم لما يحملونه في صدورهم من العلم والدِّين .



إنَّها (**معانٍ**) عاليةٌ لَطيفَة، و(**مقاصدُ**) حسنةٌ شريفَة، و(**أخلاقٌ**) فاضلَةٌ منيفَة؛ لا تَصدرُ إلَّا ممَّن استنار بنور (**العلم النَّافع**) قلبُه، وكان ممَّن سَعِدَ؛ فـ(**أعانَه ربُّه**).

---

(١) «السنن الصغير» للبيهقي (٤/ ١٨١/ ت قلعجي) .

(٢) قال الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد (ت١٤٢٩) – رحمه الله تعالى – في «حلية طالب العلم» (ص١٩٣/ المجموعة العلمية) : «**وقد كان العلماء يلقِّنون طلَّابهم حفظَ قصيدة الجرجانيِّ عليِّ بن عبد العزيز** (م سنة ٣٩٢هـ) – رحمه الله تعالى – **كما نجدُها عند عدد من مترجميه**» انتهى.

(٣) قال ابن الأثير – رحمه الله تعالى – في «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٢/ ٣٥٦): «السَّرَب بالتَّحريك: المسلك في خُفية» انتهى .

قلوبٌ هبطَ في جذرها تعظيمُ العلم النَّافع، وعلوُّ شأنه، ورفيع منزلته؛ فهو وَحيُ الله، و(وَحيُ الله) أَعظمُ من أن يُبتذَل لنَيل دُنيًا، أو تَحقيق جاهٍ، وشَرَف، أو تَبوُّءِ منزلَة، ومنصِب ؟ .



إنَّها: **مِيميَّةُ العلَّامة القاضي أبي الحسن عليِّ بن عبد العزيز الجرجانيِّ** (ت٣٩٢) – رحمه الله تعالى – الَّتي حَوَت معاني إبَاء العالِمِ، وعزَّة طَالب العلمِ[١] .



وفي رِيَاض هذه القصيدة الغنَّاء :

صفةُ أهل العلم حقًّا، ووصفُ طلبَةِ العلم النَّافع صدقًا، الَّذين جمعوا بين (**عزَّة النَّفس**)، و(**الزُّهد**)، والتَّرفُّع عن ابتذَال علومهم لأَهل الدُّنيا، و(**الصَّبر**) على ضِيق العَيش، وشظَف الحياة، و(**صيَانة العلم**) الَّذي يحملون، وعلى ربِّهم – وحدَه لا شريكَ له – يتوكَّلُون[٢] .

---

(١) وسترى – إن شاء الله تعالى – أيُّها المُوفَّق الحصيف في هذه النَّشرة الجميلة هذه القصيدةَ مضبوطة الشكل بأَحسن إعراب، مجموعة من أوثق مصادرها، وأقربها إلى عصر صاحبها، مرويَّة بأسانيدها، مرتَّبة على أجمل ما يناسبها، في بحوث نفسية، وشرح ماتع، والله هو الموفِّق، والمستعان، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله .

(٢) **فائدة لطيفة:** قال محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦) في «تفسيره» (١٨/ ٤٦٢) عند قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف] في خاتمة كلامه على الآية :

«قال مصنِّف الكتاب فخر الدِّين الرَّازي: والَّذي جرَّبتُه من أوَّل عمري إلى آخره أنَّ الإنسان كلَّما عوَّل في أمر من الأمور على غير الله؛ صار ذلك سببًا إلى البلاء، والمحنة، والشِّدَّة، والرَّزيَّة!، وإذا عوَّل العبد على الله، ولم يرجع إلى أحدٍ من الخلق، حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه .

ومعلومٌ أنَّ الأصلَ في أهل العلم، وطلَّابه هو (الفَقر)؛ حتى ادَّعى بعض الأدباء أنَّ أصل كلمة (الفقه) هو (الفقر)!، غير أن الرَّاء زاد التواؤها؛ فعادت هاءً مَطويَّة !!؛ فقال :

إِنَّ (الفَقِيهَ) هُوَ (الفَقِيرُ) وإِنَّما ... رَاءُ الفَقِيرِ تجَمَّعَت أَطرَافُهَا !!

وقال العلَّامة أحمد بن عمر المُزَجَّد الزَّبيدي (ت٩٣٠)[1] :

قُلتُ لِلفَقرِ أَينَ أَنتَ مُقِيمٌ؟ ... قَالَ لِي في مَحَابِرِ العُلَمَاءِ !

إِنَّ بَينِي وبَينَهُم لإِخَاءٌ ... وعَزِيزٌ عَلَيَّ تَركُ الإِخَاءِ!



وقديمًا قال الإمام عبد العزيز بن رفيع الأسديُّ الطائفيُّ (ت١٣٠): «**من طلب الحديث أفلس**» .

وقال الإمام شعبة بن الحجَّاج (ت١٦٠): «**من طلب الحديث أفلس؛ لقد أفلستُ حتَّى بعت طستًا لأمي بسبعة دنانير!**» .

وقال - أيضًا- : «**إذا رأيتَ المحبرة في بيت إنسان فارحمه، وإن كان في كمِّك شيء؛ فأطعمه!**»، ورُوي عنه: «**ليبلغ الشاهد منكم الغائب: مَن ألحَّ في طلب العلم** - أو قال: في طلب الحديث- **أورثه الفقر**» .

فهذه التَّجربة قد استمرَّت لي من أوَّل عمري إلى هذا الوقت الذي بلغتُ فيه إلى السابع والخمسين .

فعند هذا استقر قلبي على أنَّه لا مصلحةَ للإنسان في التَّعويل على شيء سوى فضل الله تعالى، وإحسانه» انتهى .

[1] «شذرات الذهب» (٨/ ١٦٩/ ط دار الكتب العلمية)، و«النور السافر عن أخبار القرن العاشر» (ص١٣٠) .

وقال علي بن خشرم: سمعت سفيان بن عيينة (ت١٩٨)، يسأل رجلا ما حرفتُك؟، قال: طلب الحديث، قال: «**بشِّر أهلك بالإفلاس**» !.

وقال ابن عيينة - أيضًا - : «**لا تدخل هذه المحابر بيت رجل إلَّا أشقى أهله وولده**»، وكان يقول: «**مَن زيد في عقله، نُقص من رزقه**»[1].

وقال مالك بن أنس (ت١٧٩): «**لا يبلغ أحد من هذا العلم ما يريد؛ حتَّى يُضرَّ به الفقرُ، ويؤثرَه على كلِّ شيء**»[2].

وقال ابن القاسم: كان مالك يقول: «**إنَّ هذا الأمرَ لن يُنال؛ حتَّى يُذاق فيه طعمُ الفقر** !.

وذكر ما نزل بربيعةَ من الفقر في طلب العلم؛ حتَّى باع خشب سقف بيته![3]

---

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٩٩-١٠١/ ط)، و«جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٤١١-)، و«سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٦١).

(٢) «تذكرة السامع» (ص٣٦).

(٣) بيعُ أهل العلم دُورَهم، ومتاعَهم لسدِّ خلَّتهم في طلب العلم مشهورٌ، متداولٌ، وأشدُّ ما تَدمي له قلوبهم بيعُهم لكتبهم الَّتي عانَوا تصحيحها، والتَّعليق عليها دهرًا من زمانهم؛ فتلك جمرُ الغضى!، كما جرى للإمام النَّحوي أبي الحسن عليِّ بن أحمد الفَالي (ت٤٤٨)، وكانت له نسخة من كتاب «الجمهرة» لابن دريد في غاية الجودة، أعطوه فيها ثلاثمئة دينار؛ فأبى أن يبيعها، ثم دارت به الأيَّام، فدعته الحاجة إلى بيعها؛ فباعها، واشتراها الشَّريف المرتضى أبو القاسم بستِّين ديناراً، وتصفَّحها؛ فوجد بها أبياتاً بخطِّ بائعها أبي الحسن الفالي، وهي:

أَنِستُ بِهَا عِشرِينَ حَولاً وبِعتُهَا ... لَقَد طَالَ وَجدِي بَعدَهَا وحَنِينِي

ومَا كَانَ ظَنِّي أَنَّنِي سَأَبِيعُهَا ... ولَو خَلَّدَتنِي فِي السُّجُونِ دُيُونِي

ولَكِن لِضَعفٍ وافتِقَارٍ وصِبيَةٍ ... صِغَارٍ عَلَيهِم تَستَهِلُّ شُؤُونِي

فَقُلتُ ولَم أَملِك سَوَابِقَ عَبرَةٍ ... مَقَالَةَ مَكوِيِّ الفُؤَادِ حَزِينِ

في طلب العلم؛ وحتَّى كان يأكل ما يلقى على مزابل المدينة من الزَّبيب، وعصارة التَّمر»[١].

وقال يونس بن عبد الأعلى: قال لي الشافعي (ت٢٠٤): «يا أبا موسى، قد أَنِستُ بالفقر؛ حتى لا أستوحش منه».

قال: وسمعت الشافعي يقول: «يا أبا موسى، أَزيَنُ شيء بالعلماء الفقرُ مع القناعة، والرِّضا بهما».

قال: وسمعت الشافعي يقول: «فقر العلماء فَقرُ اختيار، وفَقرُ الجهَّال فقر اضطرار».

قال: وقال الشافعي: «يا أبا موسى؛ لقد أفلستُ ثلاث مرَّات، ولقد رأيتني آكل السَّمك بالتَّمر، لا أجد غيرهما»[٢]، وقال -أيضًا-: «لا يصلح طلب العلم إلَّا لمفلس»، قيل: ولا الغنيُّ المكفيُّ، قال: «ولا الغنيُّ المكفيُّ»[٣].

وقال - أيضًا-: «لا يتعلَّم أحد هذا العلم بالملك - أو قال: بالمال-، وعزَّة النَّفس فيفلح، ولكن من طلبه بذلَّة النَّفس، وضيق العيش، وحرمة العلم

(وقَد تَخرِجُ الحَاجَاتُ يَا أَمَّ مَالكٍ كَرَائمَ مِن رَبٍّ بِهِنَّ ضَنِينِ)

وانظر: «معجم الأدباء» (٣/ ٥٤٣)، و«وفيات الأعيان» (٣/ ٣١٦)، و«سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٥٥)، و«الوافي بالوفيات» (٢٠/ ٨٨).

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٤١٠)، وإسناده صحيح كما قال محقِّقه، والمعنى: أنَّه ربَّما اقتات بما يبقى من التَّمر، والزَّبيب بعد عصرهما! ممَّا يرميه النَّاس.

(٢) «آداب الشافعي ومناقبه» لابن أبي حاتم (ص١٠٠)، و«مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٤٩-١٥٠/ ط مكتبة دار التراث).

(٣) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٤١٢)، و«تذكرة السامع» (ص٣٦)، و«العقد التليد في اختصار الدر النضيد» (ص١٣٣) للعلموي.

أفلح»[1].

وقال – أيضًا – : «**لا يفلح الرجل في هذا الشأن** – يعني في طلب العلم –؛ **حتى يكون له قميص، ولا يكون له سراويل، ويكون له سراويل، ولا يكون له قميص**» .

وقال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعيَّ – رضي الله عنه – يقول: «**يحتاج طالب العلم إلى ثلاث خصال:**

أولها: طول العمر، والثاني: سعة ذات اليد، والثالث: الذكاء»[2].

وقال الإمام سُحنون (ت٢٤٠) : «**لا يصلح العلم لمن يأكل حتَّى يشبع، ولا لمن يهتمُّ بغسل ثوبه !**»[3].



وقال الإمام شيخ المالكيَّة القاضي عبد الوهاب بن عليِّ بن نصرٍ المالكي[4]

---

(١) «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٤١-١٤٢) .

(٢) «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٤٢) علَّق الحافظُ البيهقيُّ (ت٤٥٨) على هذا الأثر؛ فقال: «**وهذا لا يخالف ما مضى؛ وإنما أراد بما مضى حكاية عن غالب أحوال الناس في زهادة أهل الثروة في طلب العلم، وقلَّة صبرهم عليه، وأراد بهذا أن يكون له سعةٌ في المعيشة لا يشغله طلب القوت عن التَّعلُّم**، والله أعلم» انتهى .

(٣) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٤١١) ، وكان – رحمه الله تعالى – يقول: (**قبح الله الفقر أدركنا مالكا، وقرأنا عَلَى ابن القاسم**) !، ومن لطيف كلامه – رحمه الله تعالى – قوله: (**أَكلٌ بالمسكنة خيرٌ من أكلٍ بالعِلم**)، وقوله: (**محبُّ الدنيا أعمى لم ينوِّره العلم**)، وقوله: (**ما أقبحَ بالعالِمِ أن يأتي الأمراء؛ فيُقال: هو عند الأمير، والله ما دخلت قط على السلطان إلَّا وإذا خرجت حاسبتُ نفسي؛ فوجدتُ عليها الدَّرك، وأنتم ترون مخالفتي لهواه، وما ألقاه به من الغلظة – والله – ما أخذتُ لَهم دِرهمًا، ولا لبستُ لَهم ثوبا**) .

(٤) «الذخيرة في محاسن الجزيرة» (٨/ ٥٢٤/ ط الدار العربية – ليبيا – تونس) لأبي

(ت٤٢٢) – رحمه الله تعالى– :

وَا لَهفَ نَفسِي عَلَى شَيئَينِ لَو جُمِعَا
عِندِي لَكُنتُ امرَءًا مِن أَسعَدِ البَشَرِ
(كَفَافُ عَيشٍ) كَفَانِي ذُلَّ مَسأَلَةٍ
و(خِدمَةُ العِلمِ) حَتَّى يَنقَضِي عُمُرِي[1]

الحسن الشنتريني (ت٥٤٢)، و«خطبة كتاب المؤمَّل للردِّ إلى الأمر الأوَّل» (ص٥٢/ ط أضواء السَّلف)، وعزاه ابن الفوطي (ت٧٢٣) في «مجمع الآداب في معجم الألقاب» (٤/ ٦٥/ ط مؤسسة الطباعة والنشر – إيران) إلى ابن الإبريسمي .

(١) **فائدة لطيفة جدًّا** : جاء في كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» (٨/ ٥١٥-٥١٦) في ترجمة شيخ المالكية القاضي عبد الوهاب البغدادي – رحمه الله تعالى– ما حرفُه :

«ونَبَت به بغداد، **كعادة البلاد، بذوي فضلها!**، وعلى حكم الأيام في محسَّني أهلها؛ فخلع أهلَها، وودَّع ماءَها وظلَّها، وقد حُدِّثت أنَّه شيَّعه يوم فصلَ عنها من أكابرها، وأصحاب محابرها، جملةٌ موفورةٌ، وطوائفُ كثيرة، وأنَّه قال لهم عندما وقف للتَّوديع، وعزم عليهم في الرُّجوع: **(والله يا أهل بغداد؛ لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية!؛ ما عدلتُ ببلدكم بلوغَ أمنيَّة)!**؛ والخبز عندهم يومئذ ثلاثمائة رطل بمثقال، وزعموا أنه ارتجل يومئذ هذه الأبيات :

سَلَامٌ عَلَى بَغدَادَ فِي كُلِّ مَوطِنٍ ... وحُقَّ لَهَا مِنِّي السَّلامُ المُضَاعَفُ
لَعَمرُكَ مَا فَارَقتُهَا قَالِيًا لَهَا ... وإنِّي بِشَطَّي جَانِبَيهَا لَعَارِفُ
ولَكِنَّهَا ضَاقَت عَلَيَّ بِرَاحُهَا ... ولَم تَكُنِ الأَرزَاقُ فِيهَا تُسَاعِفُ
فَكَانَت كَخِلٍّ كُنتُ أَهوَى وِصَالَهُ ... وتَنأَى بِهِ أَخلَاقُهُ وتُخَالِفُ

وبَلغني أنَّه اجتازَ في وُجهَتِهِ تلكَ بمَعرَّة النُّعمان، وبها يومئذ أبو العلاء أحمد بن سليمان، فضيَّفه، وكتبَ إليه بما أثبتُّه في موضعه، وفي ذلك يقول أبو العلاء :

والمَالِكِيُّ ابنُ نَصرٍ زَانَ فِي سَفَرٍ ... بِلادَنَا فَحَمِدنَا النَّأيَ والسَّفَرَا
إِذَا تَفَقَّهَ أَحيَا مَالِكًا جَدَلًا ... ويَنشُرُ المَلِكَ الضِّلِّيلَ إِن شَعَرَا

وقال شيخ الحنفية الإمام القاضي الفاضل أبو سعيد الخليل بن أحمد السِّجزي الحنفي (ت٣٧٨) - رحمه الله تعالى- :

رَضِيتُ مِن الدَّنيَا بِقَوتٍ يُقِيمُنِي ... ولا أَبتَغِي مِن بَعدِهِ أَبدًا فَضلَا
ولَستُ أَرُومُ القُوتَ إِلّا لأَنَّهُ ... يُعِينُ عَلَى عِلمٍ أَرُدُّ بِهِ الجَهلَا
فَمَا هَذِهِ الدُّنيَا بطِيبِ نَعِيمِهَا ... لأَصغَرِ مَا في العِلمِ مِن نُكتَةٍ عِدلَا



ولله درُّ القائل، وربَّما نُسبَت إلى الإمام الشَّافعي (ت٢٠٤) - رحمه الله تعالى- :

أَمطِرِي لُؤلُؤًا سَمَاءُ سَرَندِيـ ... ـب وفِيضِي آبَارُ تَكرُورَ تِبرَا

واستقرَّ الفقيه أبو محمد بمصر؛ فحمل لواءها، وملأ أرضها وسماءها، واستتبع سادتها وكبراءها، وتناهت إليه الغرائب، وانثالت في يديه الرغائب؛ فمات لأوَّل ما وصلها، من أَكلَة اشتهاها فأكلها؛ زعموا أنه قال، وهو يقلِّب، ونَفَسُه قد تصعَّد، وتَصوَّب : (**لا إله إلا الله، إذا عِشنا مُتنا**)، وكانت وفاته بها - رحمه الله- سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة» انتهى .

ومن لطيف شعره :

بَغدَادُ دَارٌ لأَهلِ المَالِ طَيِّبَةٌ ... ولِلمَفَالِيسِ دَارُ الضَّنكِ والضِّيقِ
ظَلِلتُ حَيرَانَ أَمشِي في أَزِقَّتِهَا ... كَأَنَّنِي مُصحَفٌ في بَيتِ زِندِيقِ!

وانظر: «وفيات الأعيان» لابن خلِّكان (٣/ ٢١٩-٢٢٠و٢٢١) .

(١) جاء في «معجم البلدان» (٣/ ٢١٦)، و(٢/ ٣٨): «سرنديب هي جزيرة عظيمة في بحر هركند بأقصى بلاد الهند، طولها ثمانون فرسخا في مثلها [ثم أطال في وصف عجائبها]» انتهى، وقال - أيضًا- : «تكرور بلاد تنسب إلى قبيل من السودان في أقصى جنوب المغرب» انتهى.

علَّق ههنا صاحب الفضيلة الشيخ أبو ذر عبدُ العزيز البرعيُّ - حفظه الله تعالى-؛ فكتب: ([سرنديب] تسمَّى -الآن- سرلنكا) .

أَنَا إِن عِشتُ لَستُ أَعدَمُ قُوتًا ... وإِذَا مِتُّ لَستُ أَعدَمُ قَبرَا
هِمَّتِي هِمَّةُ المُلُوكِ ونَفسِي ... نَفسُ حُرٍّ تَرَى المَذَلَّةَ كُفرَا
وإِذَا مَا قَنِعتُ بِالقُوتِ عُمرِي ... فَلِمَاذَا أَزُورُ زَيدًا وعَمرَا[1] ؟

❑ ❑ ❑

---

(١) علَّق الحافظ أبو شامة (ت٦٦٥) - رحمه الله تعالى - على هذه الأبيات في «خطبة كتابه المؤمَّل للردِّ إلى الأمر الأوَّل» (ص٩١/ ط أضواء السَّلف)؛ فقال: «**فهذا** - رحمه الله - **عرفَ مقدَار العلم؛ فلا جرم زهد في الدُّنيا، وقنع منها بالقوت، وحصَل على رياض العلم، ومتنزهاته، ومحاسن أوجهه، وطيِّب أوقاته**» انتهى .

وفي ترجمة شيخ الشَّافعية في زمانه الشَّيخ أبو إسحاق الشَّيرازي (ت٤٧٦) - رحمه الله تعالى - :

قال أبُو العبَّاسِ الجُرجانِيُّ القاضِي: «**كان أبُو إسحاق لا يملك شيئاً، بلغ بِهِ الفقر؛ حتَّى كان لا يجدُ قُوتاً، ولا ملبساً !، كُنَّا نأتيه وهُو ساكنٌ في القطيعة**[1]**؛ فيَقوم لنا نِصفَ قَومةٍ؛ كِي لا يظهرَ مِنهُ شيءٌ مِن العُرِي**[2] ! .

قال الحافظ الذهبيُّ: ومات أبُو إِسحاق، ولم يُخلِّف دِرهماً، ولا عليهِ دِرهمٌ، **وكذا فليكُنِ الزُّهدُ**[3]» انتهى .



---

(١) والقطيعة محلَّة بالجانب الغربي من بغداد، وهي قطيعة الفقهاء، وهناك قطيعة أخرى هي قطيعة الربيع يسكنها التُّجَّار، ولعلَّ أبا العلاء المعريَّ عنى الأولى بقوله:

أَيَّامَ وَاصَلتني وُدًّا وتَكرُمَةً   وبالقَطِيعَةِ دَاري تَحضُرُ النَّهَرا

(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٤٥٨-٤٥٩) .

(٣) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٤٦١-٤٦٢) في آخر كتابي «العلم النَّافع وأثره على الفرد والمجتمع» فصل نافعٌ في هذا المَعنَى .

وقال الحافظ عبدُ الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة (ت٦٦٥) - رحمه الله تعالى - :

«وينبغي لمن نظمه الله سبحانه في سلك العلماء أن يعرف قدر نعمته عليه؛ فقد قرَّبه من درجة النبوَّة بما أسداه إليه؛ فلا يحزن لما يفوته من أمر الدُّنيا، فما آتاه الله خير ممَّا أوتي أهلها .

ولا يتبرَّم بما ينزل به من مصائبها؛ فإِنَّ ذلك من علامات قَبوله، ولُحوقه بسلَفه؛ فقد جاء في الحديث: «**أشدُّ النَّاس بلاء الأنبيَاء، ثمَّ العلماء، ثمَّ الصَّالحون**»، وفي رواية: «**النبيُّون، ثم الأمثل فالأمثل**» .

وقال وهب بن منبه: «**لا يكون الفقيه فقيها؛ حتى يعُدَّ البلاء نعمة، والرَّخاء مصيبة، وذلك أن صاحب البلاء ينتظر الرَّخاء، وصاحب الرَّخاء ينتظر البَلاء**»[(١)]

انتهى .



(١) «خطبة كتابه المؤمَّل للردِّ إلى الأمر الأوَّل» (ص٩٢/ ط أضواء السَّلف) .

وأَختمُ بآيةٍ جَليلَةٍ، وحديثٍ عَظيمٍ؛ هما فَصلُ الخِطَاب :

وهو قَولُ الله تبَارك وتعَالى: ﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧ ﴾ [الشورى] .

وأَمَّا الحديثُ فحَديثُ محمودِ بن لَبيدٍ عَن قتادةَ بن النُّعمَانِ - رضي اللهُ عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «**إذَا أَحبَّ اللهُ عبداً حَمَاهُ الدُّنيَا، كَمَا يَظَلُّ أَحَدُكُم يَحمِي سَقِيمَهُ المَاءَ**»[(١)] .



(١) أخرجه التِّرمِذِيّ في «سننه» (٢٠٣٦)، والحاكم في «مستدركه» (٤/ ٢٣٠)، وابن حبَّان في «صحيحه» (٢٤٧٤)، والطَّبراني في «المُعجم» (١٩/ ١٢) مِن حَديثِ محمود بن لبيد عَن قتادةَ بن النُّعمَانِ - رضي اللهُ عنه- مرفوعا ، والحديث روي على وجهين رجَّح أبو حاتم في «العلل» (٥/ ٨٣) أنَّ الأصحَّ روايةُ محمُود بن لَبيد عن النبي ﷺ، ومحمودٌ صحابيٌّ صغيرٌ، وللحديثِ شواهدُ عديدة، و**الحديثُ قويٌّ جيِّدٌ** .

ولابن القيِّم كتاب ماتع سماه «عِدَةَ الصَّابرين وذخيرة الشَّاكرين»، نقل فيه عن شيخه ابن تيمية فتوى جليلة في المفاضلة بين (الفقير الصابر)، و(الغني الشاكر)، وهي مسألة خلافيَّة قديمة، وقد رجَّح شيخ الإسلام **أنَّ الأفضل منهما أتقاهما لله تعالى**، وانظر: «عِدَةَ الصَّابرين» (ص١٧٩-١٨٠)، و«مجموع الفتاوى» (١١/ ٢١-٢٢و١٢٢-١٣٢و١٩٥-١٩٦).

مباحث بين يدي الكتاب :

المبحث الأوَّل: سبب كتابة الجرجاني لهذه القصيدة الفريدة .

المبحث الثاني: هل نسبت القصيدة لغير الجرجاني ؟ .

المبحث الثالث : عدد أبيات القصيدة .

المبحث الرَّابع : شروح القصيدة .

المبحث الخامس: ترجمة القاضي أبي الحسن الجرجاني (ت٣٩٢) – رحمه الله تعالى– .

المبحث السَّادس: إسناد القصيدة .

المبحث السَّابع: ما جاء من الثَّناء على القصيدة .

المبحث الأوَّل

سبب كتابة الجرجاني لهذه القصيدة الفريدة

كتب الإمام القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني هذه القصيدة العصماء نصيحة لأهل العلم، وطلاب العلوم النَّافعة في أمر جليل، تعُمَّ به البلوى؛ وذلك أنَّ غالب أهل العلم لا يحسن إلَّا حرفة العلم، والتَّصنيف.

وهذا الأمر الجليل هو :

ما يجب أن يكون عليه من يتشرَّف بحمل العلم الشَّريف من العلماء، وطلَّاب العلم من عزَّة النَّفسِ، ومعرفة مقدار ما يحملون، ومنزلة ما له يطلبون.

وما يجب أن يتحلَّوا به من إباءٍ، وشموخٍ عن ابتذال ما شرَّفهم الله تعالى به من أجل نيل دنيا الملوك، أو الأكابر، والأثرياء.

أوجز في قصيده، وأبلغ، ونصح فيه، وأحسن، وأبدع؛ فجاء فريدًا في بابه، إماما في محرابه.

كتبَها لما يعلمه من أنَّ أهل العلم من أقصر النَّاس يدًا، وأشدِّهم فقرًا، وخصاصةً، وحاجتهم إلى ما يكفيهم شديدة، والغفلة عنهم أكيدة.



سببٌ آخر:

وأمَّا ما : جاء في ذيل كتاب «المستطرف في كل فنٍّ مستظرف»، المسمَّى بـ «ثمرات الأوراق في المحاضرات»[١] (٢/ ١٥٤) لابن حجة الحموي[٢]

---

(١) وانظر: كتابه «طيب المذاق من ثمرات الأوراق» (ص٣٦٤/ ط دار الفتح).

(٢) ترجَمه السيوطيُّ في «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» (١/ ٥٧٣/ ط

(ت٨٣٧)، ولفظه:

«**يُحكى أن القاضي أبا الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني كان يمرُّ على النَّاس، ولا يسلِّم عليهم!؛ فلامه بعض أصحابه في ذلك؛ فقال** -أي: القصيدة!-»

انتهى.



وهذه الحكاية منكرةٌ، تخالف ما كان عليه القاضي الإمام أبو الحسن الجرجاني، من علم، وورع، وفضل؛ وما كان - رحمه الله تعالى- ليخالف أمر رسول الله - صلى الله عليه، وعلى آله، وسلَّم- بإلقاء السلام على المسلمين من عرفت منهم، ومَن لم تعرف.

وهذه المعاني الجميلة الَّتي حوتها القصيدة، مكرَّرة في كثير من شعر القاضي أبي الحسن الجرجاني؛ فهو دائم اللَّهج بها؛ لأنَّها عنده من ضرورات طالب العلم النَّافع، ومن أصول العالم العامل.

فتلك الحكاية - على سوقها مضعَّفةً-، شديدةُ النَّكارة، لا يلتفت إليها، والله أعلم.



عيسى البابي)؛ فقال: «رأس أدباء العصر تقي الدين أبو بكر بن علي [ابن حجة] الحموي، نزيل القاهرة، صاحب البديعية المشهورة، وشرحها [المعروف بخزانة الأدب]، وثمار الأوراق، وغير ذلك من التصانيف الأدبية، مات في شعبان سنة سبع وثلاثين وثمانمائة» انتهى، وقال الزِّركلي في «الأعلام» (٢/ ٦٧) : «وكان طويل النَّفس في النَّظم، والنَّثر، حسن الأخلاق، والمروءة، فيه شيءٌ من الزهو، والإعجاب» انتهى.

وانظر: كتابه: «طيب المذاق من ثمرات الأوراق» (ص٣٦٤/ ط دار الفتح).

المبحث الثاني

هل نسبت القصيدة لغير الجرجاني ؟

هذه القصيدة الفريدة أجمع كلُّ من ترجم للقاضي أبي الحسن الجرجاني أنَّ القصيدة له، ومن نظمه، وحُرِّ لفظه، بل تناقلها الأئمة عنه من طرق كثيرة إليه سماعًا، وعرضًا، وكتابة، وإجازة كما سترى - إن شاء الله تعالى- في المبحث السَّادس، جيلًا بعد جيل إلى عصرنا هذا .

قال سبط ابن الجوزي (ت٦٥٤) في «مرآة الزمان في تواريخ الأعيان» (١٨/ ١٣٥/ ط دار الرِسالة) :

«وقد ادَّعى قومٌ أن هذه الأبيات للشَّافعي في هذا الوزن، والقافيَّة قصيدٌ منها:

تَعَاظَمَنِي ذَنبِي فَلَمَّا قَرَنتُهُ
بعَفوِكَ رَبِّي كَانَ عَفوُكَ أَعظَمَا

وليس بصحيح، إِنَّما هي للجرجاني» انتهى .



المبحث الثالث

عدد أبيات القصيدة

المتداول عند أهل العلم، والأدب، إنشادًا، وتدوينًا ما يزيد على عشرين بيتًا، تواتر حفظها، والاستشهاد بها؛ حتَّى سارت مسير الشَّمس .

وجاء في حاشية المطبوع من شرح «كتاب المضنون به على غير أهله» للأديب عبيد الله بن عبد الكافي العبيدي (ص١٥) ما لفظه: (وفي الهامش كذا : وهي قصيدة تبلغ أربعة وأربعين بيتًا،وقفتُ عليها بخطِّ أستاذي، وأخي الشيخ محمد ابن العلامة الشيخ أحمد القاسمي السعدي نفع الله بعلومه) انتهت الحاشية .

فهذه التَّعليقة كانت على هامش مخطوط الشرح المذكور، ولا أدرى - الآن- مَن كاتبها، ولم يُسمَّ .

وأمَّا القاسمي؛ فلعلَّه: محمد بن أحمد بن قاسم، المعروف بالقاسمي، ترجمه الزِّركلي في «الأعلام» (٦/ ١٠)، وفيه أنَّه توفِّي سنة ١٠٥٤[١] .

وللباحث الأستاذ إبراهيم صالح التركماني بحث بعنوان: «ميميَّة القاضي الجرجاني علي بن عبد العزيز»، نشر في «مجلة مجمع اللغة العربية» بدمشق (سنة ٢٠٠٤/ المجلد٧٩/ الجزء٤) حقَّق فيه نصَّ القصيدة، أُوقف على مخطوطة كتبت في القرن التَّاسع، وبلغ عدد أبيات تحقيقه المذكور (٥٥) بيتًا .



---

(١) وانظر: «معجم المؤلفين» لرضا كحَّاله (٨/ ٣٠٩/ ط مكتبة المثنى) .

وبقراءتي لنشرته دوَّنت هذه الملاحظات، وهي :

١/ عدم اشتهار تداولها عند الأئمَّة إلَّا بعشرين بيتًا، أو تزيد قليلا، مع تواتر تداولها بين أهل العلم، وهم كانوا أحرص على حفظها، وضبطها تامَّة؛ لأهميَّة موضوعها، وبديع سبكها؛ ولهذا جعلوها من عيون الشِّعر، وفائقه؛ فكيف يهملونها ؟ .

٢/ بعض الأبيات حصل خلاف في نسبتها؛ فقد ذُكِرَ أنَّه لغير الجرجاني، كما أفاد الباحث د. عبد الرزَّاق حويزي في بحث له بعنوان: «ميميَّة القاضي الجرجاني في تعظيم العلم، ونظرات في نشرات ديوانه» .

٣/ هذه الزيادات في القصيدة إنَّما وردت في ضمن مخطوط متأخِّر في القرن التاسع تقريبًا، مجهول النَّاسخ، بعد مُضيِّ خمسة قرون من موت ناظمها؛ فهو أصل متأخِّر، لا ندري هل كاتبه ضابطٌ، معتنٍ، يعتمد على نقله؛ أم لا ؟ .

ممَّا قد يشير إلى احتمال الزيادة فيها، وعدم ضبطها لا سيَّما أنَّه كتب بعد خمسة قرون .

٤/ أنَّ القصيدة لا زالت مسموعة عند أهل العلم، إلى زمن الحافظ شمس الدِّين السخاوي (ت٩٠٢)، والمحدِّثون والرُّواة حريصون في مثل هذا .

٥/ اختلاف نَفَس الأبيات؛ فلعلَّها قصيدتَان، أو مقطوعات عِدَّة .

وليس اتِّحاد الأبيات وزنًا، وقافية، دليلًا على أنَّها قصيدة واحدة، إلَّا بنصٍّ عمَّن يوثق بنقله، وعلمه، أو بأصل معلوم[1] .

---

(١) وممن نبَّه على هذه القضيَّة الأستاذ الشاعر هلال ناجي العراقي (ت١٤٣٢) وهو من المتخصِّصين في علم التَّحقيق؛ فقال : «دمج المقطَّعات المتفقة وزنا وقافية ورويًّا، واعتبارها أشلاء متناثرة من قصيدة واحدة دون سند، أو نصٍّ في مصدر قديم، وهذا الدمج

ولهذه الأسباب رأيت في هـذه النَّشــرة الجديـدة أن أُورد مـا تداولتـه ألسـنة الأئمَّة، والرُّواة، وما دُوِّن في كثير من المَصَادر المتنوِّعة، وهو أربعة وعشــرون بيتًـا سارَت بها الرُّكبان، وتداولتها الألسنة، وحفظت في الجنان، والله وحده المستعان .



فائدة :

زاد سـبط ابـن الجـوزي (ت٦٥٤) في «مـرآة الزمـان في تـواريخ الأعيـان» (١٨/ ١٣٥/ ط دار الرِسالة) في أبيات القصيدة هذا البيت، ولم أجده عند غـيره، وهو :

ومَــاذَا عَسَــى الــدُّنيَا وإِن جَــلَّ خَطبُهــا
يَنَــالُ بهَــا مَــن صَــيَّرَ الــذُّلَّ مَطعَــمَا

نعم جاء البيت في نشرة الأستاذ إبـراهيم صـالح، وهـو في المخطـوط الَّـذي اعتمده، هكذا :

ومَــاذَا عَسَــى الــدُّنيَا وإِن جَــلَّ قَــدرُهَا
يَنَــالُ بـِـهِ مَــن صَــيَّرَ الصَّــبرَ مِعصَــمَا

رفضه جل المحقِّقين العرب المعاصرين، وعدُّوه تجاوزا خطيرا على تراث الشاعر ....، وهو أمر طرح على وضع قواعد تحقيق المخطوطات العربية في شهر أيار عام ١٩٨٢ المنعقدة في بغـداد، وكان كاتب هذا البحث أحد أربعة مثَّلوا المحقِّقين في العراق - شاركهم في اللجنة عـدد مـن كبار المحقِّقين في الدول العربية بإشراف ممثِّل عن معهـد المخطوطـات العربيـة في القـاهرة- ؛ فرأى المجتمعون أنَّه أمر لا تجيزه قواعد التَّحقيـق العلمـي» انتهـى مـن «مجلَّـة اللغـة العربيـة الأردني» (العدد٧٨/ ١يناير ٢٠١٠/ ص١٦٧-١٦٨)، وعنوان البحث : (شعر القاضي عـلي ابن عبد العزيز الجرجاني صنعة الدكتور عبد الرزاق حويزي استدراك ونقد) .

ثم وجدت الحافظ أبا شامة (ت٦٦٠) - رحمه الله تعالى- ذكر هذا البيت في «خطبة الكتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول» (ص: ٩١) هكذا:

ومَاذَا عَسَى الدُّنيَا وإن جَلَّ قَدرُهَا

يَنَالُ بهِ مَن صَيَّرَ الصَّبرَ مَطعَمَا

وهكذا أورده جامع «ديوان القاضي الجرجاني» (ص١٢٦/ جمع سميح إبراهيم صالح)، وفيه (ينال بها).

قلتُ: ولم أجد هذا البيت في سائر مصادر القصيدة، والبيت لا يخلو من التَّصحيف، أو التَّحريف؛ حتَّى صار إلى الرَّكاكة أقرب منه إلى جزالة أبيات هذه القصيدة المستحسنة الرَّائعة؛ فتدبَّر.

ولأجل هذه الأسباب الثلاثة لم أُدرج هذا البيت في القصيدة، والله هو الموفِّق.



المبحث الرَّابع

شروح القصيدة

لم أقف على شروح للقصيدة إلَّا شرحًا مختصرًا، وتعليقًا مفيدًا كتبه العالم الأديب عبيد الله بن عبد الكافي بن عبد المجيد العبيدي (توفِّي بعد سنة ٧٢٤)[١] في أثناءِ شرحه لكتاب «المضنون به على غير أهله» للإمام عز الدِّين أبي محمد عبد الوهاب الزنجاني (ت٦٦٠)، الَّذي اختار فيه جملة من القصائد، والأبيات، وذكر فيه عشرين بيتًا من قصيدة القاضي الجرجاني، وهذا أكثر ما وجدته في المصادر من أبيات القصيدة .

وكذلك أوردها مع اختلافٍ في ترتيب الأبيات :

الفقيه الكاتب محمد بن عبد الرحمن بن عبد المجيد العبيدي[٢] (المتوفَّى بعد سنة ٧٠٦) في كتابه «التذكرة السعدية في الأشعار العربية» (ص٣٨٥-٣٨٧/ ط المكتبة الأهلية ببغداد/ تحقيق عبد الله الجبوري/ ١٩٧٢) .

ومع هذا فقد سقط من القصيدة في هذين المصدرين أربعة أبيات، لم يوردها الإمام الزَّنجاني في كتابه «المضنون به على غير أهله»، ولا العبيدي صاحب

---

(١) ترجَمه الزِّركلي في «الأعلام» (٤/ ١٩٤) .

(٢) ترجَمه ابن الفوطي (ت٧٢٣) في كتابه «مجمع الآداب في معجم الألقاب» (٢/ ١٤٤/ ط مؤسسة الطباعة والنشر – إيران)؛ فقال: «عماد الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عبد المجيد بن عبد الله العبيدي التبريزي الفقيه الكاتب، من أولاد العلماء الأفاضل، قرأ القرآن المجيد، واشتغل على عمه مولانا شمس الدين عبد الكافي، وكتب الخط المليح، واشتغل، وحصَّل، رأيته بتبريز سنة ست وسبعمائة» انتهى .

وهو ابن عمِّ الأوَّل .

«التَّذكرة»، وهي :

وإِنِّي لَــــرَاضٍ عَـــــن فَتًـــــى مُتَعَفِّـــــفٍ
يَـــرُوحُ ويَغـــدُو لَــيسَ يَملِــكُ دِرهَمَـــا

يَبِيـــتُ يُرَاعِـــي الــنَّجمَ مِــن سُــوءِ حَالِــهِ
ويُصـــبِحُ طَلقًـــا ضَـــاحِكًا مُتَبَسِّـــمَا

ولا يَســـأَلُ المُثـــرِينَ مَـــا بِـــأَكُفِّهِم
ولَـــو مَـــاتَ جُوعًـــا عِفَّـــةً وتَكَرُّمَـــا

يَقُولُـــونَ: زِنـــدُ العِلـــمِ كَـــابٍ فَـــإِنَّمَا
كَبَـــا حِـــينَ لَم تُحـــرَس حِمَـــاهُ وأَظلَـــمَا



وشرحُ العلامة عبيد الله العبيدي للأبيات العشرين المذكورة قائم على ثلاثة أمور:

(بيان الإعراب في أكثرها)، و(بيان معاني بعض الألفاظ اللغوية)، و(بيان مقصود النَّاظم) .

وقد أفدتُ منه جزاه الله خيرا في بيان مقاصد ناظم القصيدة، وزدتُ عليه .



المبحث الخامس

ترجمة الإمام القاضي أبي الحسن عليِّ بن عبد العزيز الجرجانيِّ (ت٣٩٢)

- رحمه الله تعالى -

وتشتمل على مطالب سبعة :

١ – اسمه

٢– ثناء الأئمة عليه

٣– رحلاته في طلب العلم

٤– مؤلفاته

٥– وفاته .

٦– هل كان القاضي أبو الحسن الجرجاني معتزليًّا ؟ .

٧– القاضي أبو الحسن الجرجاني ونقد الشِّعر .

المطلب الأوَّل: اسمه

هو : أبو الحسن علي بن عبد العزيز بن الحسن بن علي بن إسماعيل الجرجاني .

ولد بجرجان(١) ، ودفن بها .



المطلب الثَّاني: ثناء الأئمَّة عليه

قال حمزة السَّهمي (ت٤٢٨) : «كان قاضي جرجان، وبالرِّي قاضي القضاة..، **وكان من مفاخر جرجان**» انتهى(٢) .

وقال أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت٤٢٩) في «يتيمة الدَّهر في محاسن أهل العصر»(٣) (٤/ ٣) :

«حسَنَة جُرجان، وفرد الزمان، ونادرة الفلك، وإنسان حدقة العلم، ودرَّة تاج الأدب، وفارس عسكر الشعر، يجمع خطَّ ابن مقلة، إلى نثر الجاحظ، ونظم البحتري، وينظم عقد الإتقان، والإحسان في كل ما يتعاطاه .. »(٤) .

وقال أبو سعد الآبي (ت٤٢١) في «تاريخه»: «**كان هذا القاضي لم يـر لنفسه مِثلا، ولا مقاربًا، مع العفَّة، والنَّزاهة، والعدل، والصَّرامة**» انتهى(٥) .

وقال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي (ت٤٧٦) في «طبقات الفقهاء»

---

(١) كانت جرجان تُسمَّى قديمًا (استراباذ)، وهي اليوم إحدى مدن إيران، أفاده صاحب الفضيلة الشيخ أبو ذر عبد العزيز البرعي - حفظه الله تعالى-.

(٢) «تاريخ جرجان» (ص٣١٨/ ط دار عالم الكتب) .

(٣) ولما أراد ذكر من هم على شرط كتابه من أهل جرجان، وطبرستان افتتحهم بالقاضي أبي الحسن الجرجاني .

(٤) وانظر: «يتيمة الدهر» (٣/ ٣٦) .

(٥) «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٢٠)، و«تاريخ الإسلام» (٨/ ٧١٦) .

(ص١٢٢): «**وكان فقيهاً أديباً شاعراً**، وله ديوان» انتهى .

وقال أبو الحسن ابن الأثير (ت٦٣٠) في «الكامل في التاريخ» (٨/ ٢٧/ ط دار الكتب العلميَّة) : «والقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني بالرَّي، **وكان إماما فاضلا ذا فنون كثيرة**» انتهى .

وقال الذهبي : «الفقيه، الشافعي، الشاعر، صاحب (الديوان) المشهور، ولي القضاء؛ فحمد فيه، [وكان حَسَنَ السِّيرة فِي أحكامه]، وكان صاحب فنون، ويد طولى في براعة الخطِّ، [صدوقًا، جمَّ الفضائل] » انتهى[1] .

وقال العماد ابن كثير : «الفقيه الشافعي الشَّاعر المطبق، وله ديوان مشهور، وتفسير كبير، وغير ذلك، تولَّى قضاء جرجان، ثمَّ صار إلى قضاء القضاء بالرِّي، وكان جوادا، ممدَّحا، جامعا لأسباب الفضائل [سمع الحديث، وترقَّى في العلوم؛ حتى أقرَّ له النَّاس بالتفرُّد، وله أشعار حسان] » انتهى[2] .



المطلب الثَّالث: رحلاته في طلب العلم

كان للقاضي أبي الحسن رحلات واسعة في طلب العلم، في جملة من بلاد الإسلام، كالعراق، والشَّام، والحجاز، وغيرها، تحمَّل فيها المشاقَّ، والمتاعب .

قال الإمام الحافظ أبو عبد الله الحاكم (ت٤٠٥) في «تاريخ نيسابور» :

«ورد نيسابور سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة مع أخيه أبي بكر، وقد ناهز الحلم؛ فسمعا معًا الحديث الكثير، ولم يزل أبو الحسن يتقدَّم إلى أن ذُكِرَ في الدُّنيا، وكان الشيخ عبد القاهر الجرجاني قد قرأ عليه، واغترف من بحره، وكان إذا ذكره في

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٢١) .

(٢) «طبقات الشافعيين» (ص٣٢٢)، و«البداية والنهاية» (١١/ ٣٣١/ ط دار الفكر).

كتبه تبخبَخ به، وشمخ بأنفه بالانتماء إليه، وطوَّف في صباه البلاد، وخالط العباد، واقتبس العلوم، والآداب، ولقي مشايخ وقته، وعلماء عصره» انتهى .

قال أبو منصور عبد الملك بن محمَّد الثَّعالبي (ت٤٢٩) : «وكان في صباه خلَّف الخُضر في قطع عرض الأرض، وتدويخ بلاد العراق، والشَّام، وغيرها، واقتبس من أنواع العلوم، والآداب، ما صار به في العُلوم علمًا، وفي الكلام عالمًا»[١] .

وقال الذهبي: «وَرَدَ نيسابُور سنة سبعٍ وثلاثين، مَعَ أخيه فِي الصِّبا، وسمعا سائر الشيوخ» انتهى[٢] .



المطلب الرَّابع: مؤلفاته

ذكر المترجمون له من المصنَّفات :

١/ تفسير القرآن المجيد، وهو كبير .

٢/ ديوان شعر مشهور .

٣/ مختصر تاريخ الطبري، سمَّاه تهذيب التاريخ .

٤/ ورسائل مدوَّنة .

٥/ تاريخ جرجان .

٦/ الوساطة بين المتنبي وخصومه .

وهو أشهر كتبه الموجودة – الآن–، وقد أثنى على هذا الكتاب كثير ممن جاء بعده، بل وفي عصره – أيضًا– .

---

(١) «يتيمة الدهر» (٤/ ٣) .

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٢١) .

قال أبو منصور عبد الملك بن محمَّد الثَّعالبي (ت٤٢٩) :

«ولمَّا عمل الصَّاحب رسالته المعروفة في «إظهار مساوئ المتنبِّي»، عمل القاضي أبو الحسن كتاب «الوساطة بين المتنبِّي وخصومه في شعره»؛ فأحسن، وأبدع، وأطال، وأطاب، وأصاب شاكلة الصَّواب، واستولى على الأمد في فصل الخطاب، وأعرب عن تبحُّره في الأدب، وعلم العرب، وتمكُّنه من جودة الحفظ، وقوَّة النَّقد؛ فسار الكتاب مسير الرِّياح، وطار في البلاد بغير جناح .

وقال فيه بعض العصريِّين من أهل نيسابور :

أَيَا قَاضِيًا قَدْ دَنَتْ كُتْبُهُ ... وإِنْ أَصْبَحَت دَارُهُ شَاحِطَه

كِتَابُ الوَسَاطَةِ في حُسْنِهِ ... لِعَقْدِ مَعَالِيكَ كَالوَاسِطَه[(١)]

وقال الذَّهبي: «أبان فيه عَن فضلٍ غزير»[(٢)] .



المطلب الخامس: وفاته

قال الثَّعالبي : «وأفضى مَحَلُّهُ إلى قضاء القُضاة؛ فلم يعزله عنه إلَّا موتُه - رحمه الله -»[(٣)] .

قال الحافظ الذَّهبيُّ :

«توفِّي: في الثالث والعشرين من ذي الحجَّة، سنة ٣٩٢، ووَهِمَ ابن خِلِّكَان، وصحَّح أنَّه توفِّي سنة ٣٦٦؛ وإنَّما ذاك آخر[(٤)]» انتهى .

---

(١) «يتيمة الدهر» (٤/ ٤-٥) .

(٢) «تاريخ الإسلام» (٨/ ٧١٧) .

(٣) «يتيمة الدهر» (٤/ ٣) .

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٢١) .



المطلب السَّادس: هل كان القاضي أبو الحسن الجرجاني معتزليًّا ؟ .

لم أجد من صرَّح بهذا من مترجميه ممَّن يعتدُّ به على كثرتهم، كالحاكم أبي عبد الله (ت٤٠٥)، والذَّهبي، وهو أمر تتوفَّر الدَّواعي على نقله – لو كان– .

هذا مع استفاضة ثناء النقَّاد عليه؛ فالظاهر من حاله السَّلامة من ذلك، والله أعلم .

وقد كان القاضي أبو الحسن صديقًا للوزير المشهور الصَّاحب بن عبَّاد (ت٣٨٥)، وكان معتزليًّا جلدًا، وذُكر أنَّ عبد الجبار بن أحمد الهمذَاني (ت٤١٤)، وهو شيخ المعتزلة، هو الذي أمَّ النَّاس في الصَّلاة على جنازة أبي الحسن الجرجاني .

وهذا وحده غير كافٍ في الجزم بانتحاله لعقيدة المعتزلة، بل سكوت المترجمين كالحاكم في تاريخ نيسابور، وأمثالِه عن وصمهِ بالاعتزال، مع عادتهم في تصريحهم بوصف مَن كان معتزليًّا بالاعتزال، أقوى في براءته من ذلك كلِّه، والله أعلم .

نعم أدخله ابن المرتضى المعتزلي الزَّيدي (ت٨٤٠) في كتابه «طبقات المعتزلة» (ص١١٥/ ط دار مكتبة الحياة)، وجعله في الطبقة الحادية عشر، وزعم أنَّه أخذ هذه الطبقة، والتي بعدها عن الحاكم ! .

وهذا يعوزه التَّحرير، وكتاب الحاكم «تاريخ نيسابور» مفقود – الآن–، ولم ينقل هذا أحد ممَّن ينقل عن الحاكم مع حرصهم على ذلك .

وعلى أيِّ حال: فالرَّجل لا يعرف بالبدع، ولا نصرها، ولا الدَّعوة إليها، ولا محاربة عقيدة السَّلف الصَّالح؛ ولهذا أعظم أهل السنَّة الثَّناء عليه، واللهُ أعلم .



المطلب السَّابع: القاضي أبو الحسن الجرجاني وبراعته في نقد الشِّعر

كان القاضي - رحمه الله تعالى - من كبار نقَّاد الشِّعر[1]، المتبصِّرين بأصول النَّقد فيه .

وله في ذلك إحسان كبير، وتحرٍّ للنَّصَفة، وكان يردُّ مسلك المبالغة في التَّمجيد، والتَّفضيل، ويذمُّ كذلك مسلك الحطِّ على المتَأخرين، والحطِّ على شعرهم .

ولعلَّه من أوائل من دعا إلى نقد الشِّعر دون النَّظر إلى قائله، أو زمانه .

وهذا يدلُّ على رجاحة عقله، وتجرُّده، وتحلِّيه بالإنصاف مع القديم التَّليد، والطَّريف الجديد .

وله في هذا كتابٌ جميل، وسفرٌ ماتع، وهو كتابه : «الوساطة بين المتنبي وخصومه ونقد شعره» .

ومن جميل كلامه فيه قوله (ص: ٤و٥٠/ ط عيسى البابي) :

«وليس يطالب البشر بما ليس في طبع البشر[2]، ولا يُلتَمس عند الآدمي إلَّا ما كان من طبيعَة ولد آدم؛ وإذا كانت الخِلقة مبنيَّة على السَّهو، وممزوجة بالنِّسيان؛

---

(١) وفي ضابط الشِّعر، والسرِّ في إحسانه يقول - رحمه الله تعالى - : «**أنا أقول** - أيَّدك الله - : إنَّ الشِّعر علم من علوم العرب، **يشترك فيه الطَّبع، والرِّواية، والذَّكاء**، ثمَّ تكون الدُّربة مادَّة له، وقوَّةً لكلِّ واحد من أسبابه؛ فمن اجتمعت له هذه الخصال، فهو المحسن المبرِّز؛ وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان، ولست أفضِّل في هذه القضيَّة بين القديم والمحدَث، والجاهلَّي والمخضرم، والأعرابيِّ والمولَّد؛ إلَّا أنَّني أرى حاجة المُحدَث إلى الرِّواية أمسَّ، وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر» انتهى من «الوساطه بين المتنبي وخصومه ونقد شعره» (ص١٥-١٦).

(٢) تدبَّر أيُّها العاقل ما في هذه العبارة من جزالة رأي، ورجاحَة عقل، وعذوبة لفظ .

فاستسقاط من عزَّ حاله حيفٌ، والتَّحامل على من وُجِّه إليه، ظلمٌ .

ولِلفضل آثارٌ ظاهرة، وللتَّقدم شواهدُ صادقة .

فمتى وُجدت تلك الآثار، وشُوهدت هذه الشَّواهد؛ فصاحبها فاضل متقدم؛ فإن عثر له من بعد على زلَّة، ووُجدَت له بعقب الإحسان هفوةٌ، انتُحل له عذرٌ صادق، أو رخصةٌ سائغة؛ فإن أعوز قيل: (زلَّة عالم)، وقلَّ مَن خلا منها، وأيُّ الرِّجال المهذَّبُ! .

ولولا هذه الحكُومة لبطل التَّفضيل، ولزال الجرح، ولم يكن لقولنا (فاضل) معنًى يوجد أبدًا، ولم نَسِمْ به إذا أردنا حقيقةً أحدًا .

وأيُّ عالم سمعتَ به، ولم يزلَّ، ويغلط!، أَو شاعر انتهَى إليك ذكرُه لم يَهف، ولم يَسقُط! » انتهى .



وقال - أيضًا- (ص٥٠) من كتابه ناعيًا قضيَّة الإنصَاف :

«وما أكثر من ترَى، وتسمع من حُفَّاظ اللُّغَة، ومن جِلَّة الرُّواة: مَن يلهج بعَيب المتأخِّرين؛ فإنَّ أحدهم ينشد البيت، فيستحسنه، ويستجيده، ويَعجَب منه، ويختاره؛ فإذا نُسبَ إلى بعض أهل عصره، وشعراء زمانه كذَّب نفسَه!، ونقضَ قولَه!، ورأى تلك الغضَاضَة أهونَ محملاً، وأقلَّ مَرزَأَةً مِن تَسليمِ فَضيلَةٍ لُمحدَثٍ، والإِقرَارِ بالإحسَانِ لُمولَّدٍ ! .

حُكي عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي[1] أنَّه قال: أنشدتُ الأصمعيَّ [شعرًا

(١) هو: إسحاق بن إبراهيم بن ميمون، أبو محمد التميمي الموصلي النَّديم صاحب الغناء، عالم بالفقه، والحديث، واللغة، وأخبار النَّاس، شاعر رائق، وإليه المنتهى في الموسيقى، والغناء، وكان يكره أن ينسب إلى الغناء، وكان نديم الخلفاء، وكان يكره أن ينسب إلى الغناء،

لي، على أنَّه لشاعر قديم] [١] :

هَـل إِلَى نَظـرَةٍ إِلَيـكَ سَـبِيلُ ... فَيَبَلَّ الصَّـدَى ويَشفَى الغَلِيلُ

إِنَّ مَـا قَـلَّ مِنكَ يَكثُـرُ عِنـدِي ... وكَثِـيرٌ مِمَّـن تُحِـبُّ القَلِيلُ

فقال: والله هذا الدِّيباج الخَسرُواني، لمن تنشدني؟ .

فقلت: إنَّهما لليلتهما .

فقال: لا جرم والله إنَّ أثر التَّكلُّف فيهما ظاهر [٢] ! .

وعن ابن الأعرابي في أبيات أبي تمام في الرَّوض نحوٌ من هذا، وله نظائر»

انتهى .



قال المأمون: (لولا شهرة إسحاق بالغناء لوليته القضاء)، قال إبراهيم الحربي: (كان ثقةعالمًا)، وهو تلميذ الأصمعي، وسمع منه الأصمعيُّ - أيضًا - .

انظر: «تاريخ بغداد» (٧/ ٣٥٤/ ط بشار)، و«تاريخ الإسلام(٥/ ٧٨٩-٧٩٠/ بشار)، و«الوافي بالوفيات (٨/ ٢٥٢-٢٥٥/ ط دار إحياء التراث)، وغيرها .

(١) «تاريخ الإسلام (٥/ ٧٩١/ بشار) .

(٢) وانظر: «تاريخ الإسلام (٥/ ٧٩١/ بشار)، وفيه زيادة : [قلت: ولا جرم فيك أثر الحسد] .

فائدة : من لطيف شعر إسحاق الموصلي، قوله في قصيدة :

أَرَى النَّاسَ خِلَّانَ (الجَوَادِ) ولَا أَرَى ... بَخِيلًا لَهُ فِي العَالمِينَ خَلِيلُ!

وإِنِّي رَأَيتُ البُخلَ يُزرِي بِأَهلِهِ ... فَأَكرِمُ نَفسِي أَن يُقَالَ: (بَخِيلُ)

ومِن خَيرِ حَالاتِ الفَتَى لَو عَلِمتِهِ ... إِذَا نَالَ شَيئًا أَن يَكُونَ يُنِيلُ

عَطَائِي عَطَاءُ المُكثِرِينَ تَكَرُّمًا ... ومَالِي كَمَا قَد تَعلَمِينَ قَلِيلُ

المبحث السَّادس

إسناد القصيدة

لا زالت هذه القصيدة الفريدة العصماء متداولة بالسَّماع، والرِّواية عند الأئمَّة الأعلام في كلِّ زمان إلى القرن العاشر الهجري .

وقد وقفت على خمسة طرق تروى بها هذه القصيدة :

الطريق الأولى :

طريق الإمام الحافظ أحمد بن عبد الرحمن الشيرازي (ت٤٠٧)[1] - رحمه الله تعالى- .

أخرجها الإمام الحافظ الخطيب البغدادي (ت٤٦٣) - رحمه الله تعالى- في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٣٧١/ ط مكتبة المعارف) :

«أخبرنا عبد الله بن على بن حمويه الهمذاني بها، أخبرنا أحمد بن عبد الرحمن الشَّيرازي، قال: أنشدني القاضي أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجاني لنفسه» - وساق ثمانية أبيات منها- .

وهذا سندٌ صحيح .



ومن طريق الحافظ الخطيب البغدادي :

أخرجها الإمام الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي (ت٥٩٧) في كتابه «المنتظم في

---

(١) قال الذَّهبي في «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٢٤٣): «قلت: كان من فرسان الحديث، واسع الرحلة» انتهى، وهو شيخ أبي يعلى الخليلي، أكثر عنه، وكان يقول: (حدثنا أحمد بن أبي مسلم الفارسي الحافظ) .

تاريخ الملوك والأمم» (١٥/ ٣٥/ ط دار الكتب العلمية)؛ فقال : «أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الباقي، البزَّاز، أخبرنا أحمد بن علي بن ثابت بها» .

وهذا سندٌ سماعيٌّ، ثابتٌ، مسلسلٌ بالأئمَّة الحُفَّاظ، وهو من أَصحُّ أسانيدِ القَصيدَة - فيما وقفتُ عَليه-، واللهُ أعلم .



الطريق الثَّانية :

طريق الحافظ أبي يعلى الخليل بن عبد الله بن أحمد بن الخليل القزويني (ت٤٤٦) - رحمه الله تعالى-.

أخرجها يحيى بن الحسين الشجري (ت٤٩٩) في «الأمالي الخميسية (١/ ٨١-٨٢/ مع ترتيب العبشمي)؛ فقال :

«أنشدنا الخليل بن عبد الله بن أحمد بن الخليل بن عبد الله بن الخليل، بقزوين، قال: أنشدنا القاضي أبو الحسين علي بن عبد العزيز الجرجاني لنفسه غير مرة» .

وساق ثلاثة أبيات من القصيدة .

وهذا الإسناد صحيح، والشجري محتجٌّ به، وإن كان رأسًا في البدعة، قال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (١٠/ ٤٥١/ ط بشار): «كان مفتي الزَّيدية، ومقدَّمهم، وعالِمهم، وكان متفننًا من العِلم، والأدب، واللَّغة، .. وكان ممَّن عُنِي بالحديث، والرِّحلة فيه» انتهى .



الطريق الثَّالثة :

طريق الحافظ الواعظ أبي سعد الحسين بن عثمان الشيرازي (ت٤٣٥) - رحمه الله تعالى- .

أخرجها الإمام الحافظ الخطيب البغدادي (ت٤٦٣) - رحمه الله تعالى- في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٣٧١/ ط مكتبة المعارف)؛ فقال :

«أنشدني أبو سعد الحسين بن عثمان الشيرازي قال: أنشدنا علي بن عبد العزيز الجرجاني لنفسه» .

وساق من القصيدة ثمانية أبيات .

وهذا سند عال، والحافظ الواعظ أبي سعد الحسين بن عثمان الشيرازي (ت٤٣٥)، روى عنه البغداديون .



الطريق الرَّابعة :

طريق أبي علي الحسن بن رافع الشهرزوري الأديب، ولم أجد - الآن- ترجمته .

أخرجها الإمام الحافظ النَّاقد أبو الرَّبيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي الحميري الأندلسي (ت٦٣٤) - رحمه الله تعالى- في جزئه في «المسلسلات»؛ فقال:

«قرأت على أبي الحجاج يوسف بن محمد، قال: قرأت على أبي طاهر أحمد بن محمد الأصبهاني ، قال: أنشدنا القاضي أبو زكريا يحيى بن أحمد بن الحسين الغضائري[1] بدربند حزران ، قال: أنشدنا أبو علي الحسن بن رافع الشهروزي

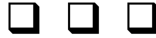
---

(١) قال الذَّهبي في «تاريخ الإسلام» (١١/ ١٠٨): «كان عالمًا، فاضلًا، صالحًا، ورعًا، متميِّزًا» انتهى .

الأديب ، نزل ببلدنا ، قال: أنشدنا قاضي القضاة أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني ، بالري، لنفسه» .

وساق من القصيدة ستة أبيات .

وهذا السَّند رجاله أئمَّة معروفون، ما عدا أبا عليٍّ الشهرزوري؛ فلم أعرفه، والله المستعان .



ومن طريق أبي طاهر السِّلفي أخرجه :

الإمام مسند الحجاز أبو بكر بن الحسين المراغي (ت٨١٦) - رحمه الله تعالى- كما في «مشيخة أبي بكر المراغي» (١٢٧و١٢٨-١٢٩/ تخريج جمال الدين المراكشي [ت٨٢٣])؛ فقال :

«أخبرني ابن الملوك، قال: أنبأنا محمد بن عبد الهادي، ح وكتب إلي أحمد بن نعمة بن جعفر بن علي المقرئ قال: أنا، وقال ابن عبد الهادي: أنبأنا أحمد بن محمد السلفي به» .

وهذا سندٌ صحيحٌ إلى الحافظِ السِّلفيِّ .



الطريق الخامسة :

طريق الفقيه الحاكم أبي الفضل إسماعيل بن محمد بن الحسن (ت٤٣١)[1] - رحمه الله تعالى- .

أخرجها من هذا الطريق :

الحافظ خليل بن كيكلدى العلائي (ت٧٦١) - رحمه الله تعالى- في جزئه «الأربعين المغنية بعيون فنونها عن المعين» (ص٤٥٤رقم٥٦٩/ ط الدَّار الأثريَّة/ ت الشَّيخ مَشهور)؛ فقال:

«أخبرنا المسند المعمر أبو محمَّد عيسى بن عبد الرحمن بن معالي بن حمد بن أحمد ابن أبي عطاف المقدسي ثم الصَّالحي قراءة عليه، وأنا أسمع، قال: أنا أبو الفضل جعفر بن علي بن هبة الله الهمداني سماعاً عليه، أنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن يحيى العثماني قال: كتب إلي العلامة أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري[2] من مكة، وأنشدني عنه الفقيه أبو عبد الله محمد ابن عبد الله

---

(١) جاء في كتاب «المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور» (ص١٤٣/ ط للصريفيني في ترجمة المذكور: «معروف من الحنفية، فاضل، سمع من الخفاف، توفي سنة إحدى وثلاثين وأربع مائة، أنبا عنه أبو بكر محمد بن يحيى بن إبراهيم»، وانظر: «الطبقات السنية في تراجم الحنفية» (٢/ ٢٠٥/ ط دار الرفاعي) .

(٢) قال الإمام الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٤/ ٧٨): «محمود بن عمر الزمخشري المفسر النحوي، صالح، لكنه داعية إلى الاعتزال، أجارنا الله؛ فكن حذرًا من كشافه» انتهى .

قلت: توفي سنة ٥٣٨هـ، وهو ضابط للشِّعر، بصير به، كثير الإنشاد .

وقد أورد قطعة من أبيات قصيدة أبي الحسن الجرجاني في كتابه «ربيع الأبرار ونصوص الأخيار» (٤/ ٣٥/ ط مؤسسة الأعلمي بيروت)، وصدَّر بالثَّناء عليها؛ فقال: «**وقد أحسن كل الإحسان، كأنما نسجت في طراز حسان**» انتهى .

الأندلسي قال: أنشدنا أحمد بن محمد بن إسحاق الخوارزمي[1]، أنشدنا أبو سعد المحسن بن محمد الجشمي[2] قال: أنشدنا الحاكم أبو الفضل إسماعيل بن محمد بن الحسن قال: أنشدنا القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني لنفسه» .

وساق ١٦ بيتا من القصيدة .



ومن هذا الطريق أخرجه تاجُ الدِّين عبد الوهاب بن علي السبكيُّ (٧٧١)؛ فقال :

«**ومن شعر أبى الحسن السَّائر فى الآفاق ما :**

أنشدناه الحافظ أبو العباس بن المظفر بقراءتى عليه، قال: أنشدنا الحسن بن على بن محمد بن الخلال بقراءتى، أنشدنا جعفر بن على الهمذانى سماعا عليه، قال: أنشدنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن يحيى العثمانى الدِّيباجى الإمام[3]، قال: كتب إلَيَّ العلامة أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشرى[4] من مكة، وأجاز لى» .

ثم ساق تسعة أبيات من القصيدة .



---

(١) لم أجد – الآن– ترجمته .

(٢) معتزليٌّ، ثم صار زيديًّا متعصِّبًا، وهو شيخ الزمخشري، صاحب «رسالة الشيخ إبليس إلى إخوانه المناحيس»؛ قيل: قتل بسببها، وانظر: «الأعلام» (٥/ ٢٨٩)، وقد ترجمته في كتابي «شد العزيمة في الذَّبِّ بالحقِّ عن إمام الأئمة ابن خزيمة»، وذكرت بعض بوائقه، والله المستعان .

(٣) وجميع هؤلاء أئمَّة ثقات معروفون .

(٤) الإمام اللُّغوي المشهور، وكان رأسًا في الاعتزال .

ح وأخرجه التَّاج عبد الوهاب بن علي السبكي (٧٧١) مـن طريـق أخـرى؛ فقال:

«ح وكتب إليَّ أحمد بن على الحنبلى، وزينـب بنـت الكـمال[١]، وفاطمـة بنـت إبراهيم بن أبى عمر[٢] عن محمَّد بن عبد الهادى عن الحافظ أبـى طـاهر السِّـلفى[٣] عن الزمخشرىِّ.

قال: أنشدنا أحمد بن محمد بن إسحاق الخوارزمى، قـال: أنشـدنا أبـو سـعد المحسن بن محمد الجشمى، قال: أنشدنا الحاكم أبو الفضل إسماعيل بن محمـد بـن الحسن، قال: أنشدنا القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى لنفسه»[٤].

ثمَّ ساق تسعة أبيات من القصيدة.

ورجال الإسناد معروفون، إلَّا شيخ الزمخشري، وبلديَّه أحمـد بـن محمـد بـن

---

(١) ترجمها السبكي في «معجم الشيوخ» (ص٥٦٥)؛ وذكر أنَّ أبا محمَّد البرزالي ذكرهـا في مسودة معجمه؛ فقال: (شيخة صالحة عابدة)، وقال الفرضي: (شيخة زاهـدة أصـيلة مـن بيت الحديث، والزهد).

(٢) ترجمهـا السـبكي في «معجـم الشـيوخ» (ص٥٦٥)؛ فقـال: «سـمع منهـا الـذهبي والبرزالي، وذكرها في مسودة معجمه؛ فقال: (زوجة الشيخ أحمد ابن الشيخ إبراهيم الأرموي امرأة صالحة، من خيار النساء)» انتهى كلامه، وعمِّرت، وتفردت بالرِّوايـة عـن إبـراهيم بـن خليل، وبإجازتها عن محمد بن عبد الهادي، وروت الكثير، وانتفع بها الناس، مولدها في سـنة أربع وخمسين وست مئة، وتوفيت في يوم الخميس السادس والعشرين من شـوال سـنة سـبع وأربعين وسبع مئة انتهى.

(٣) حافظ عصره الإمام المشهور.

(٤) «طبقـات الشـافعية الكـبرى» للسـبكي (٣/ ٤٦٠)، ومعيـد الـنعم ومبيـد الـنقم (ص٥٨).

إسحاق الخوارزمى؛ فلم أجد ترجمته - الآن- .

طريق آخر :

وهو ما أخرجه الحافظ شمس الدِّين السخاوي (ت٩٠٢) في «البلدانيات» (ص٢٢٦/ ط دار العطاء)؛ فقال :

«أخبرني بها الوالد - رحمه الله - بها في آخرين بغيرها عن أبي زرعة بن عبد الرحيم الحافظ إذنا (ح) .

وأخبرني بعلو العز أبو محمد الحنفي كلاهما عن العز أبي عمر بن جماعة قال الأول سماعا أنبأنا أبو الفضل بن عساكر عن أم المؤيد زينب ابنة أبي القاسم الجرجاني أنبأنا العلامة أبو القاسم الزمخشري[1] أنشدنا أحمد بن محمد بن إسحاق الخوارزمي أنشدنا أبو سعيد المحسن بن محمد الجشمي في كتاب جلاء الأبصار في الأخبار أنشدنا الحاكم أبو الفضل إسماعيل بن محمد بن الحسن أنشدنا علي بن عبد العزيز الجرجاني القاضي لنفسه » .

وساق ١٧ بيتًا من القصيدة .

وشيوخ السخاوي ثقات معروفون، وبقيَّة الإسناد تقدَّم الكلام فيها .

والأسانيد، والطُّرق الأربعة المتقدِّمة، خير من هذا الطَّريق الخامس الَّذي جمع بعض أئمَّة البدعة، والله أعلم .



وفي عصرنا هذا يتَّصل الإسناد إلى هذه القصيدة العصماء بالسَّماع من بعض الشُّيوخ، والإجازة وهي الغالب على طبقات الأسانيد المتأخِّرة، من طرق كثيرة

---

(١) روايتُها عن الزمخشري بالإجازة كما في «سير أعلام النبلاء» (٢٢/ ٨٦) .
ورجال الإسناد إلى الزمخشري ثقاتٌ مسندون .

إلى الخليلي، والخطيب البغدادي، وأبي طاهر السِّلفي، وابن الجوزي، والعلائي، والسبكي، والسخاوي، وغيرهم .

ومنهم سماعا في الأغلب، ومكاتبة، وإجازة إلى ناظمها، والله الموفِّق .



وقد يسَّر الله تعالى بمنِّه، وكرمه، وجوده، وإحسانه لكاتب هذا الجزء :

رِواية هذه القصيدة العصماء سماعًا مرارًا كثيرةً جدًّا من شيخنا الإمام المجدِّد، والعلَّامة الزاهد أبي عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي - رحمه الله تعالى، ورفع درجته في المهديين- من لفظه، ومن لفظه حفظناها .

ح وأرويها بقراءتي لتسعة أبياتٍ منها على شيخنا العلامة المسند الفقيه المعمَّر علي بن يحيى البهكلي - عافاه الله، وشفاه، وألبسه ثياب العافية، ورفع درجته، وأثابه، وجزاه خير الجزاء- وأشار إليَّ أنه سمعها من أشياخه، وطرق أسانيده مبسوطة في كتاب «الكوكب المعتلي بثبت وترجمة واختيارات العلامة السلفي والفقيه المحقق الشافعي علي بن يحيى البهكلي»، وهو مطبوع منشور بحمد الله تعالى، ومنِّه .

ثمَّ يسَّر الله الكريم فزُرتُه - عافاه الله، وحفظه- في صباح يوم الإثنين ٢١/ شوال/ ١٤٤٠ إلى منزله العامر بمدينة صامطة، واستأذنته أن أقرأ عليه جميع الأبيات التي جمعتُها، وحقَّقتُها في هذا الجزء، والشَّرح؛ فأذن، فقرأتُها عَلَيهِ تامَّة بحضور حفيده الشَّاب الخلوق سلطان ابن الأستاذ حمد ابن شيخنا - عافاه الله، وشفاه، وجزاه خير الجزاء-، وعلَّق على آخر الأبيات؛ فقال ما حرفُه: (**ولا سيَّما في هذا الزَّمان**) ! .

ح وأرويها إجازة عن شيوخ كثر، والله الموفِّق .

فائدة :

جاء في كتاب «بغية الملتمس في تـاريخ رجـال أهـل الأنـدلس» (ص٢١٩-٢٢٠/ ط) للعلامة المـؤرخ أبي جعفـر الضَّـبِّي (ت٥٩٩) في ترجمـة إبـراهيم بـن عبد الله بن إبراهيم، أبو إسحق الأنصاري ثم البلنسي، قال الضَّـبِّي : «صـاحبنا، محدِّث ثقة ثبت، روى ببلنسية عن أبي الحسـن بـن النعمـة وغـيره، ثـم رحـل إلى المشرق فأقام بالإسكندرية في مدرسة الحـافظ السـلفي نحـو مـن عشرـين سـنة، وكتب عن الحافظ أبي الطاهر السلفي ما لم يكتب أحد، وكان عالماً بالرجال متقللاً من الدنيا لم يغير من هيئته التي كان بها بالأندلس شيئاً، كنت معه بالمدرسة مـدَّة؛ فحمدت حاله وزهده، وورعه، وانقباضه عن الناس، وفـراره عـن أبنـاء الـدُّنيا، وكان ينشدني في أكثر الأحيان :

يَقُولُـــونَ لِي: فِيــكَ انقِبَــاضٌ وإِنَّـــمَا
رَأوا رَجُـــلًا عَـــن مَوقِــفِ الـــذُّلِّ أحجَـــمَا

ثم ساقها إلى أن قال الضَّبِّي : «وكان يسندها إلى قائلها، وكنت على أن أكتب سندها؛ فحفزني السَّفر» انتَهى كلام الضَّبِّي .

قلتُ: (إبراهيم بن عبد الله، أبو إسـحاق الأنصـاري المتـوفى سـنة٥٩٠) لـه مشيخة كبيرة من العراق، ومصر، ومن أكبر شيوخه الحـافظ أبـو طـاهر السِّـلفي (ت٥٧٦)؛ فقد لازمه نحو عشرين سنة، وللسِّلفي أسانيد تقدَّمت .



تَنبيه مهمٌّ :

اختلاف عدد الأبيات في هذه الطرق الخمسة للقصيدة، لا يعني الاقتصار على ما وردت به الطَّريق المُعيَّنة؛ لاحتمال دخول الاختصار على القصيدة، ويدلُّ على ذلك الاختلاف في سرد الأبيات في مجموع الطرق السَّالفة، بل اختلاف عدِّها في نفس الطريق الواحد، كما في الطريق الخامس؛ فتارة ستَّة عشَر بيتًا (١٦) ، وثانية تسعَة أَبياتٍ (٩)، وثالثة أخرى سبعة عشَر بيتًا (١٧)، والإسنادُ مخرجُه واحدٌ؛ فتدبَّر ! .

ويدلُّ على ذلك - أيضًا- إيرادُها في عشرين بيتًا في كتاب «المضنون به على غير أهله» للإمام عز الدِّين أبي محمد عبد الوهاب الزنجاني (ت٦٦٠)، وهو إمامٌ متحرٍّ في هذا الباب .

وعليه: فالزِّيادة إمَّا أن تروى سماعًا على ظنِّ الاختصار، أو وجادةً، أو إجازةً، والله تعالى أعلم .



المبحث السَّابع

ما جاء في الثَّناء على القصيدة(١)

تقـدَّمت الإشـارة إلى اهـتمام أهـل العلـم، والأدب، والفقـه، والحـديث، والتَّاريخ، وغيرهم بهذه القصيدة، وأنَّها سارت بها الرُّكبان، وحُفِّظها في الكتاتيب الصِّبيان، وكانت علَمًا على القاضي أبي الحسن الجرجاني - رحمه الله تعالى- .

فلا تذكر إلَّاويذكر أبو الحسن الجرجانيِّ، ولا يُذكر أبو الحسـن الجرجـانيِّ إلَّا وتُذكر معه درُّته العَصماء، وقصيدته الفريدة الغرَّاء، الشَّامخة في العِزَّة، والإِبَاء .



---

(١) والقصيدة جاءت في مصادر كثيرة جدًّا منها :

«الإعجاز والإيجاز» (ص١٧٣/ ط مكتبة القرآن-القاهرة) للثعـالبي، و«يتيمـة الـدهر» (٤/ ٢٥/ ط دار الكتب العلمية) له، و«معجم الأدباء» (٤/ ١٦٠/ ط دار الكتـب العلميـة)، و«بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس» (ص٢١٩-٢٢٠/ ط دار الكتـاب العـربي)، و«طبقات الفقهـاء» (ص١٢٢/ ط دار الرائـد العـربي) للشّـيرازي، و«أدب الـدنيا والـدين» (ص٩٦/ ط دار الهـلال)، و«خطبـة الكتـاب المؤمـل للـرد إلى الأمـر الأول» (ص٩١)، و«مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» (١٥/ ٣٤٧/ ط المجمع الثقافي أبو ظبـي) للعـدوي، و«معيد النعم ومبيد النقم» (ص٥٨-٥٩/ ط مؤسسة الكتب الثقافية)، و«وفيـات الأعيـان» (٣/ ٢٧٨-٢٧٩/ ط دار صـادر)، و«الـوافي بالوفيـات» (٢١/ ١٥٧-١٥٨/ ط دار إحيـاء التراث)، و«الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة» (٥/ ١٠٦/ ط دار الغرب الإسـلامي) للمراكشي، و«الآداب الشرعية والمنح المرعية» (٢/ ٥٠/ ط عالم الكتب)، و«طبقات الشافعية الكبرى» (٣/ ٤٦٠-٤٦١)، و«طبقات المعتزلة» (ص١١٥) لابن المرتضى، و«شرح المضـنون به على غير أهله» للزَّنجاني شرح العبيدي (ص/ ٧-١٥)، و«موارد الظمآن لدروس الزمـان» (١/ ١٦١) للسَّلمان، و«صفحات من صبر العلماء» (ص١١٧-١١٨) لأبي غدة، وغيرها .

قال أبو القاسم الزمخشري (ت٥٣٨): «وللقاضي العلامة أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني، وقد أحسن كلَّ الإحسان، كأنَّما نسجت في طِراز حسان[1]»[2].



وقال الحَافظُ العلَّامةُ أبو شامة (ت٦٥٥) - رحمه الله تعالى-: «**وما أجود أبيات القاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني من أصحابنا في صيانة العلم، وترك التبذُّل به، وهي قصيدة نفيسة**»[3].



وقد وصفها الحافظ الذَّهبي بـ(**الأبيات الفائقة**)، و(**الأبيات المشهورة**)، ووصفها الثعالبي (ت٤٢٩)، وغيره بـ(**السائرة**)[4].



وقال السبكي (ت٧٧١) - وقد أورد قطعة منها-: «**لله هذا الشعر ما أبلغه، وأصنعه، وما أعلى على هامِ الجوزاء موضعه، وما أنفعه لو سمعه من سمعه، وهكذا فليكن وإلَّا فلا أدب كل فقيه، ولمثل هذا النَّاظم يحسن النظم الذى لا نظير له، ولا شبيه، وعند هذا ينطق المنصف بعظيم الثَّناء على ذهنه الخالص، لا**

---

(١) قال الخليل في «العين» (٧/ ٣٥٦): «الطِّراز: الثَّوبُ الحَسَنُ المُعَلَّم، ويقال للرَّجل القديم: (إنَّه لمن الطِّراز الأوَّل)» انتهى، وقال ابن دريد في «جمهرة اللُّغة» (٢/ ٧٠٤): «وتقول العَرَب: (طَرْزُ فلانٍ طرْزٌ حسنٌ)، أي زِيُّه، وهيئتُه، **واستُعمل ذَلِك فِي جيِّدِ كلِّ شَيْءٍ**» انتهى.

(٢) «ربيع الأبرار ونصوص الأخيار» (٤/ ٣٥/ ط مؤسسة الأعلمي-بيروت)، وانظر: «المستطرف في كل فن مستطرف» (١/ ٥٠).

(٣) «خطبة الكتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول» (ص٩١).

(٤) «الإعجاز والإيجاز» (ص١٧٣/ ط مكتبة القرآن-القاهرة).

بالتَّمويه» انتهى[1] .



وقال الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد (ت١٤٢٩) - رحمه الله تعالى-:

«**وقد كان العلماء يلقِّنون طلَّابهم حفظَ قصيدة الجرجانيِّ عليِّ بن عبد العزيز** (م سنة ٣٩٢هـ) - رحمه الله تعالى- **كما نجدُها عند عددٍ من مترجميه**» انتهى[2] .



---

(١) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» (٣/ ٤٦١/ ط هجر للطباعة)، و«سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٢٠)، و«تاريخ الإسلام» (٨/ ٧١٦)، و«شذرات الذهب» (٣/ ٥٦-٥٧/ ط دار الكتب العلمية)، و«طبقات الشافعية» للإسنوي (١/ ١٧١/ ط دار الكتب العلمية)، و«غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب» (١/ ٥٤/ ط) للسفاريني، و«مجلة المنار» (١٨/ ٧٨٩)، و«آثار ابن باديس» (٤/ ١٦١/ ط الشركة الجزائريَّة)، و«مجموع رسائل ابن رجب» (١/ ٥٨-٥٩) .

(٢) «حلية طالب العلم» (ص١٩٣/ المجموعة العلمية) .

نصُّ القصيدة العصماء :

يَقُولُـــونَ لِى: فِيــكَ انقِبَــاضٌ وإِنَّــمَا

رَأَوا رَجُـــلًا عَـــن مَوقِــفِ الــذُّلِّ أحجَــمَا

أَرَى النَّــاسَ مَــن دَانَــاهُمُ هَــانَ عِنــدَهُم

ومَـــن أَكرَمَتــهُ عِـــزَّةُ الـــنَّفسِ أُكرِمَـــا

ولَمْ أَقـضِ حَـقَّ العِلـمِ إِن كُنـتُ كُلَّـمَا

بَـــدَا طَمَــــعٌ صَــــيَّرتُهُ لِى سُــــلَّمَا

ومَــا زِلــتُ مُنحَــازًا بِعِــرضِىَ جَانبًــا

عَـــن الـــذُّلِّ أَعتَـــدُّ الصِّـــيَانَةَ مَغنَـــمَا

إِذَا قِيــلَ: هَــذَا مَنهَــلٌ قُلــتُ: قَــد أَرَى

ولَكِـــنَّ نَفـــسَ الحُـــرِّ تَحتَمِـــلُ الظَّـــمَا

أُنَزِّهُهَــا عَــن بَعــضِ مَــا لا يَشِــينُهَا

مَخَافَــةَ أَقــوَالِ العِــدَا: (فِــيمَ؟) أَو (لِمَــا[1])؟

فَأَصــبحُ عَــن عَيــبِ اللَّئِــيمِ مُسَــلَّمًا

وقَـــد رُحـــتُ فى نَفـــسِ الكَـــرِيمِ مُعَظَّـــمَا

---

(١) هكذا ضبطها لي شيخُنا العالِمُ اللُّغويُّ البارع عبد الرَّحمن بن عوف كوني - حفظه اللهُ تعالى-، وكنتُ ضبطتُها هكذا (لِمَ).

وإِنِّـــى إِذَا مَـــا فَـــاتَنى الأَمـــرُ لَم أَبِـــت
أُقَلِّـــــبُ كَفِّـــــى إِثـــــرَهُ مُتَنَـــــدِّمَا

ولَكنَّـــــهُ إِن جَـــــاءَ عَفـــــوًا قَبلتُـــــهُ
وإِن مَـــالَ لَم أُتبِعـــهُ: هَـــلَّا ولَيـــتَمَا

وأَقـبِضُ خَطـوِى عَـن حُظُـوظٍ كَثِـيرَةٍ
إِذَا لَم أَنَلهَـــا وَافِـــرَ العِـــرضِ مُكرَمَـــا

وأُكـــرِمُ نَفسِـــى أَن أُضَـــاحِكَ عَابسًـــا
وأَن أَتَلقَّـــــى بالمَـــــدِيحِ مُـــــذَمَّمَا

ومَـــا كُـــلَّ بَـــرقٍ لاحَ لى يَســـتَفِزُّنى
ولا كُـــلَّ مَـــن لَاقَيـــتُ أَرضَـــاهُ مُـــنعِمَا

ولَكِـن إِذَا مَـا اضـطَرَّنى الضُّـرُّ لَم أَبِـت
أُقَلِّـــبُ فِكـــرِى مُنجِـــدًا ثُـــمَّ مُـــتهِمَا

إِلَى أَن أَرَى مَـــا لَا أَغَـــصُّ بـــذِكرِهِ
إِذَا قُلـــتُ: قَـــد أَســـدَى إِلَيَّ وأَنْعَـــمَا

وكَـم طَالِـبٍ رِقِّـى بـنُعمَاهُ لَم يَصِـل
إِلَيـــهِ وإِن كَـــانَ الـــرَّئِيسَ المُعَظَّـــمَا

وكَـم نِعمَـةٍ كَانَـت عَـلَى الحُـرِّ نِقمَـةً
وكَـــم مَغـــنَمٍ يَعتَـــدُّهُ الحُـــرُّ مَغرَمَـــا

ولَمْ أَبتَــذِل فى خِدمَــةِ العِلــمِ مُهجَتِــى

لأَخــدُمَ مَــن لَاقَيــتُ لَكِــن لأَخــدَمَا

أَأَشــقَى بــهِ غَرسًــا وأَجنِيــهِ ذِلَّــةً

إِذًا فَاتِّبَــاعُ الجَهــلِ قَــد كَــانَ أَحزَمَــا

وإِنِّي لَــرَاضٍ عَــن فَتًــى مُتَعَفِّــفٍ

يَــرُوحُ ويَغــدُو لَــيسَ يَملِــكُ دِرهَمَــا

يَبِيــتُ يُرَاعِــي الــنَّجمَ مِــن سُــوءِ حَالِــهِ

ويُصــبِحُ طَلقًــا ضَــاحِكًا مُتَبَسِّــمَا

ولا يَســأَلُ المُثــرِينَ مَــا بِــأَكُفِّهِم

ولَــو مَــاتَ جُوعًــا عِفَّــةً وتَكَرُّمَــا

يَقُولُــونَ: زِنــدُ العِلــمِ كَــابٍ فَــإِنَّمَا

كَبَــا حِــينَ لَمْ تُحــرَس حِمَــاهُ وأَظلَــمَا

وَلَــو أَنَّ أَهــلَ العِلــمِ صَــانُوهُ صَــانَهُم

وَلَــو عَظَّمُــوهُ فِي النُّفُــوسِ لَعُظِّــمَا

وَلَكِــن أَهَــانُوهُ فَهَــانَ وَدَنَّسُــوا

مُحَيَّــاهُ بِــالأَطمَاعِ حَتَّــى تَجَهَّــمَا

❑ ❑ ❑

شرح

مِيمِيَّةِ

القَاضي أَبي الحَسَن الجُرجَانِيِّ

في إبَاءِ العَالِمِ وعِزَّةِ طَالِبِ العِلمِ

تشرَّف بشرحها، والعنَاية بها

أبو العباس الشحري

شرح القصيدة الميميَّة :

يَقُولُـــونَ لِي: فِيـــكَ انقِبَـــاضٌ وإنَّـــمَا
رَأَوا رَجُـــلًا عَـــن مَوقِـــفِ الـــذُّلِّ أحجَـــمَا[1]

---

(١) معنى البيت: أن حسَّاده يقولون: ما نراك إلَّا منقبضًا غير منبسط، وحُقَّ لهم أن يقولوا هذا في رجل يترفَّع عن مواطن الإذلال، ويصون نفسه، وما تحمَّله من العلم؛ فهو لذلك قريب من النَّاس، وبعيد عنهم - أيضًا - في غير إثم، ولا هجران، ولا قطيعة أرحام، وخلَّان، قد صانَ نفسه عن الاسترسال، والتَّبسُّط مع كثير من الخلق صيانة للعلم؛ ولهذا لم يجدوا إلَّا أن يقولوا له (فيك انقباض) ! .

وخلطة النَّاس أنواع، ومراتب، منها النَّافع وهو خلطة العلماء، ومنها دون ذلك، وهي درجات متفاوتة الأحكام، ومراد الشاعر - رحمه الله تعالى - ذمُّ التَّوسُّع في خلطة مَن خلطته ضياع، ومذلَّة للعلم؛ فهو - رحمه الله تعالى - يخالطهم بقدر ما تقوم به الحُجَّة، والحاجَة، والنَّصيحة، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، ونشر الخير، ولا يتوسَّع فوق ذلك؛ (ففضول المخالطة فيه خسارة الدنيا، والآخرة)، (وكم جلبت خلطة النَّاس من نقمة، ودفعت من نعمة؟، وأنزلت من محنة، وعطَّلت من منحة، وأحلَّت من رزية، وأوقعت في بليَّة؟، وهل آفة النَّاس إلَّا النَّاس؟)، وفي هذا المعنى يقول شاعرنا القاضي الجرجاني، وهو من الأبيات المشهورة، وهي - كما يقول العماد ابن كثير - من مستجاد شعره :

مَـا تَطَعَّمـتُ لَـذَّةَ العَـيشِ حَتَّـى ... صِرتُ لِلبَيـتِ والكِتَـابِ جَلِيسَـا
لَـيسَ شَيءٌ أَعَـزَّ عِنـدِي مِـن العِلـ ... ـم فَـمَا أَبتَغِـي سِـوَاهُ أَنِيسَـا
إنَّـما الـذُّلَّ في مُخَالَطَـةِ النَّـا ... سِ فَـدَعهُم وعِـش عَزِيـزاً رَئِيسَـا

وانظر: بحوثًا محرَّرة في هذا للإمام ابن القيِّم في «مدارج السالكين» (١/ ٤٥١-٤٥٤/ ط دار الكتاب العربي)، و«بدائع الفوائد» (٢/ ٤٩٨-٥٠٠/ ط الباز)، و«اللطائف والظرائف» (ص١٢٥/ ط دار المناهل-بيروت) للثعالبي، وانظر: «صفة الصفوة» لابن الجوزي (١/ ٤٤٣)، و«البداية والنهاية» (١١/ ٣٣٢/ ط دار الفكر) .

أَرَى النَّـاسَ مَـن دَانَـاهُمُ هَـانَ عِنـدَهُم

ومَـــن أَكرَمَتــهُ عِـــزَّةُ الــنَّفسِ أُكرِمَــا[(١)]

---

(١) معنى البيت: أنَّ ممَّا استفاده الشَّاعر من تجارِب الحياة أنَّ صاحب العلـم إذا خـالط الملوك، والأكابر، والأشراف من أهل الدُّنيا، وانطرح على عتبات أبوابهم أُذِلَّ ولا بدَّ، وأُهينَ، وسقط من أعينهم؛ لاسيَّما إن استَجدَى دُنياهم، ومَن ترفَّع عن مخالطتهم تعـزُّزًا بـما معـه مـن العلم النَّافع، إلَّا لضرورة مع زهد تامٍّ، وصيَانةٍ؛ فإنه يعيش عزيزًا مُكرَّمًا، والمرء حيـث يضـع نفسه؛ فيَضعُه النَّاس؛ فلا تلومَنَّ إلَّا نفسَك ! .

ولأجل هذا التَّعَزُّز ربَّما شكى إليه أَخوَان حبيبان إلى قَلبه من انقباضه عـنهم - أيضًـا-، وإغبَابه زيارَتهما؛ فقال لهما ضمنَ أبياتٍ :

وَلِي خُلُـــقٌ لا أَســـتَطِيعُ فِرَاقَـــهُ ... يُفَـوِّتُنِي حَظِّـي ويَمنَعُنِـي رُشـدِي

نُفُـورٌ عَـن الإِخـوَانِ مِـن غَـيرِ رِيبَـةٍ ... تُعَـدُّ جَفَـاءً والوَفَـا لَــهُمُ وُكـدِي

غُذِيتُ بـهِ طِفـلًا فَـإِن رُمـتُ هَجـرَهُ ... تَــأَبَّى وأَغرَتنِـــي بـــهِ أُلفَـــةُ المَهـــدِ

كَـمَا أَلِفَـت كَفَّـاكُمَا البَـذلَ والنَّـدَى ... فَأَعيَـاكُمَا أَن تَمنَعَـا كَـفَّ مُسـتَجدِي

عَـلَى أَنَّنِـي أَقضِـــي الحُقُـوقَ بِنِيَّتِـي ... وأَبلُغُ أَقصَى غَايَـةِ القُـربِ في بُعـدِي

وَيَخـدُمُهُم قَلبِـي ووِدِّي ومَنطِقِـي ... وأَبلُغُ في رَعيِ الـذِّمَامِ لَـهُم جَهـدِي

فَـإِن أَنـتُمَا لَم تَقـبَلا لِي عُـذرَةً ... وأَلـزَمتُمَاني فِيـهِ أَكثـرَ مِـن وُجـدِي

فَقُـولَا لِطَبعِـي أَن يَـزُولَ فَإِنَّـهُ ... يَـرَى لَكُـمَا حَـقَّ المَـوَالِي عَـلَى العَبـدِ

وانظر: «يتيمة الدهر» (٤/ ٢٦-٢٧)، و«ديوانه» (ص٧٣/ جمع سـميح صـالح/ ط دار البشائر) .

ولَمْ أَقْضِ حَقَّ العِلْمِ إنْ كُنتُ كُلَّمَا
بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِي سُلَّمَا[1]

ومَا زِلْتُ مُنحَازًا بِعِرضِيَ جَانبًا
عَنِ الذُّلِّ أَعتَدُّ الصِّيَانَةَ مَغنَمَا[2]

إِذَا قِيلَ: هَذَا مَنهَلٌ قُلْتُ: قَدْ أَرَى
ولَكِنَّ نَفسَ الحُرِّ تَحتَمِلُ الظَّمَا[3]

(١) معنى البيت: أنَّ مَن جعل العلم سبيلاً إلى نيل مآربه، وشهواته، وتحقيق مقاصده الدُّنيويَّة، فهو كلَّما ظهر شيءٌ من أمر الدُّنيا، ومطامعها طالب به لنفسه، وزعم أحقِّيته به؛ لأنه من أهل العلم، أو من طلابه؛ فحقُّه أن يعطى تلك المآرب الدُّنيوية؛ فهذا جعل العلم سبيلا، وسُلَّما إلى تحقيق أطماعه، وهذا الصِّنف عياذًا بالله قد ضيَّع حقَّ العلم، ودنَّس فضله، وأهانه.

(٢) معنى البيت: أنَّ مِن ما مَنَّ الله تعالى به على الشَّاعر أنَّه لم يزل عزيز النَّفس، شامخًا بأنفه عن المذلَّة، مترفِّعًا بعلمه، الَّذي آتاه الله عن رغبات أهل الدُّنيا؛ وهو في صنيعه هذا إنَّما يقصد صيانة علمه، عن الابتذال، والامتهان؛ حتَّى إنَّه صار يرى نفسه، وإن خشُن به العيش، وضاقت أسبابه، وقلَّ ما في يده أنَّه قد نال أكبر المغانم!؛ لأنَّه قد صان علمه عن الابتذال، والإهانة.

(٣) معنى البيت: أنَّ الإبل في سيرها في الفلاة، ورِعيها تمرُّ على مناهل الماء، وهو مشاربه، وعيونه؛ فتشرب، وتتزوَّد من الماء، ويخبرنا الشَّاعر أنَّه إذا قيل له فيما ينقص مروءته: (هذا موردُ ماء عذب بارد)؛ أخبرهم أنه يراه، ويقدر على الوصول إليه، ولكنَّه لا يَردهُ، ولا يشرب منه؛ بل يصبر على شدَّة حرِّ الظَّما صيانة لماء وجهه، وشريف نفسه، ومروءته، ولعل هذا المعنى مأخوذ من قول الإمام الشَّافعيِّ - رحمه الله تعالى-: «**لو أعلم أن الماء البارد، ينقص مروءتي، ما شربته**»!؛ لأنَّ (صاحبَ العلم)، وطالبَه نفسُه حُرَّة أبيَّةٌ تأبى الضَّيمَ، والذُّلَّ؛ حتَّى إنَّه ليكون في غاية الفاقة، والحاجة، ولكنه يظهر ضدَّ ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة/

أُنَزِّهُهَا عَن بَعضِ مَا لا يَشِينُهَا
مَخَافَةَ أَقوَالِ العِدَا: (فِيمَ؟) أَو (لِمَا)؟

فَأَصبحُ عَن عَيبِ اللَّئِيمِ مُسَلَّمًا
وقَد رُحتُ فى نَفسِ الكَرِيمِ مُعَظَّمَا[1]

وإِنِّى إِذَا مَا فَاتَنى الأَمرُ لَم أَبِت
أُقَلِّبُ كَفِّى إِثرَهُ مُتَنَدِّمَا

---

[٢٧٣].

وفي هذا المعنى يقول شاعرنا القاضي الجرجاني، وهو من الأبيات المشهورة :

وقَالُوا تَوَصَّل بالخُضُوعِ إِلَى الغِنَى ... ومَا عَلِمُوا أَنَّ الخُضُوعَ هُوَ الفَقرُ
وبَينِي وبَينَ المَالِ شَيئَانِ حَرَّمَا ... عَلَيَّ الغِنَى نَفسِي الأَبِيَّةُ والدَّهرُ
إِذَا قِيلَ هَذَا اليُسرُ أَبصَرتُ دُونَهُ ... مَوَاقِفَ خَيرٌ مِن وُقُوفِي بِهَا العُسرُ

ورد بيت القصيدة في بعض المصادر: (هذا مشرب)، وما أثبته هو الأشهر، والأولى .

(١) يصف علوَّ نفسه، وأنَّه يتباعد عن أمور، وأقوال، وأفعال لا عيب على من قالها، أو أتاها، ولا حرج في ذلك؛ ولكنِّي أباعد نفسي عنها؛ فكيف بالأمور الَّتي تعيبها، وتشينها، وأنا أفعل ذلك مخافة أن ينال عرضي عدوٌّ حاسد، يثير نار ضغائن صدره؛ فيقول: (في أيِّ شيء فعل كذا)، و(لم صنع كذا ؟) يقصد العيب، والذَّمَّ، والتَّشنيع؛ ولهذا أُصبحُ سليمَ العرض، موفورَ الجناب من ذمِّ لئيم النَّفس، وأمسي، وأروح كريمَ الذِّكر، مجَلَّلا معظَّمًا في نفس كلِّ كريم النَّفس، أبيِّ الطِّباع .

ورد في بعض المصادر: (**أُنَهنِهُهَا عَن بَعضِ مَا لا يَشِينُهَا**)، والنَّهنهة الكفُّ، والزَّجر، قال في «الصِّحاح» (نهه): «نهنَهت الرَّجل عن الشيء فتَنَهنَهَ، أي: كَفَفتُهُ، وزجرتُهُ؛ فكَفَّ» .

ولَكنَّـــــهُ إِن جَــــاءَ عَفـــوًا قَبلتُـــــهُ
وإِن مَــــالَ لَم أُتبِعـــــهُ: هَـــلَّا ولَيـــتَما[(١)]

وأَقــبِضُ خَطــوِى عَــن حُظُــوظٍ كَثِـيرَةٍ
إذَا لَم أَنَلهَـــا وَافِـــرَ العِـــرضِ مُكرَمَـــا[(٢)]

---

(١) أي: وإن فاتني شيء من أمور الدُّنيا لم أبت أقلِّب كفِّي ندمًا، وتحسُّرا على قربه، وفوت نيله، بل إنَّ من سجيَّتي أن لا ألتفت إلى هذا الفائت، ولا أُتبعه بصر قلبي، لأنِّي لست أرتاب أنَّه لو كان مكتوبًا لي لجاءني؛ فلمَّا فات لم ينزعج خاطري، ولا تكدَّر قلبي، ولا ندمت على هذا الفائت، وإن جاءني مال، أوعطاء، ونوال عفوًا دون سؤالٍ، وقَصدٍ منِّي، أو مَذلَّةِ نفس، أخذته كما أمرني بذلك رسول الله - صلى الله عليه، وعلى آله، وسلَّم-، كما جاء في «صحيح البخاري» (١٤٧٣)، و«صحيح مسلم» (١٠٤٥) من حديث سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه، قال: سمعت عمر بن الخطاب، - رضي الله عنه- يقول: «**قد كان رسول الله** - صلى الله عليه، وعلى آله، وسلم- **يعطيني العطاء**؛ فأقول: أعطه أفقر إليه مني؛ حتى أعطاني مرَّة مالا، فقلت: أعطه أفقر إليه مني؛ فقال رسول الله - صلى الله عليه، وعلى آله، وسلم-: «**خذه، وما جاءك من هذا المال، وأنتَ غير مُشرف، ولا سائل؛ فخذه، وما لا؛ فلا تتبعه نفسك**» .

وقال نافع: «كان المختار يبعث إلى ابن عمر بالمال، فيقبله، ويقول: لا أسأل أحدا شيئا، ولا أرد ما رزقني الله»، وانظر: «شرح السُّنة» للبغوي (٦/ ١٢٩) .

وإن فات، ولم يأت لم أُتبعه باللَّوم، والحسَرات قائلا: (هلَّا صنعتُ كذا؛ فكان لي مثل ما لفلان!)، و(ليتني فعلت كذا إذن لكان لي كذا !)؛ فما هذا لي - ولله الحمد- بخُلُقٍ .

(٢) يذكر - رحمه الله تعالى- ما هو عليه من صيانة عرضه، وشرف نفسه عن الابتذال، والامتهان؛ فهو لهذا ينزع نفسه، ويتجنَّب أمورًا لا يقربُها، وإن كان فيها حظوظ كبيرة، ومغانم كثيرة؛ لكنَّ نيلها يخدش في سموِّ نفسه، وشرفها، ولعلَّه يعني بذلك التَّذلُّل لبعض الوجهاء، والكبراء لنيل مناصب دنيوية، وجاه عريض؛ لكنَّه لما مَنَّ الله تعالى عليه من العلم

وأُكــرِمُ نَفسِــي أَن أُضَــاحِكَ عَابسًــا
وأَن أَتَلقَّــــــى بالمَـــــدِيحِ مُـــــذَمَّمَا[1]

ومَــا كُــلَّ بَــرقٍ لاحَ لِي يَســتَفِزُّنِي
ولا كُــلَّ مَــن لَاقَيــتُ أَرضَــاهُ مُــنعِمَا

ولَكِــن إِذَا مَــا اضَّــطرَّنِي الضُّــرُّ لَم أَبِــت
أُقَلِّــبُ فِكــرِي مُنجِــدًا ثُــمَّ مُــتهِمَا

النَّافع يتجنَّب إذلال العلم لأجل مراتب الدُّنيا بخلاف خسيس النَّفس؛ فهـو لا يبـالي لهَوانِـه بهَوانِه !.

(١) ومن كرامة نفسه، وإعزازها، وإعظـام العلـم أنَّـه يكـرم نفسـه أن يـماشي شخصًـا فيضاحكَه، ويباسطَه، وهو عابسٌ، معرضٌ عنه، لا يلتفـت إليـه؛ فهـذا ذلٌّ لا يرضـاه لنفسـه الأبيَّة، كما أنَّه لا يرضى أن يضع نفسه موضع من يبالغ في الثَّناء على من لا يستحقُّ مـن الثَّنـاء حرفًا، بل هو مذموم الخلال، سيِّء الفعال، لا يستحقُّ إلَّا الذَّمَّ، والعقوبة، والنَّكال .

قال الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى - وهو في «ديوانه» (ص١٢١/ ت خفاجي):

زِن مِـــن وَزَنــكَ بِــما وَزَ
نــكَ وَمــا مــا وَزَنــكَ بِــهِ فَزِنــهُ

مَــن جــا إِلَيــكَ فَــرُح إِلَيــ
ـهِ وَمَــن جَفــاكَ فَصُــدَّ عَنــهُ

مَــن ظَــنَّ أَنَّــكَ دونَــهُ
فَــاِترُك هَــواهُ إِذَن وَهِنــهُ

وَارجِــع إِلى رَبِّ العِبــا
دِ فَكُــلَّ مــا يَأتيــكَ مِنــهُ

إِلَى أَن أَرَى مَــــا لَا أَغَـــصُّ بــــذِكرِهِ

إِذَا قُلـــــتُ: قَـــــد أَســــدَى إِلَيَّ وأَنعَـــــمَا[(١)]

---

(١) هذه استعارة حسنة في تشبيه صورة البرق اللَّامع الذي يضرب كبد الغيوم، ويضيء الأرض، ويخطف إليه الأبصار، وهكذا حال العظيم الجليل من الناس؛ فالناس يبتدرون إليه بقلوبهم، وأبصارهم خوفًا، وطمعًا، كالملوك العظام، والسلاطين، والأثرياء الوجهاء، والعلماء الأجلَّاء؛ فهو يذكر - رحمه الله تعالى- في هذه الأَبيات الثَّلاثة ما ينبغي أن يكون عليه العالم، وطالب العلم من الحصافة، وحسن التصرُّف في الأمور؛ لأنَّ من راقب العواقب سلم، لاسيَّما عواقب مخالطة النَّاس، ومصاحبتهم، وملازمتهم، والدَّفع أسهل من الرَّفع؛ ولهذا يصف الشاعر نفسه الأبيَّة أنَّه ليس ممَّن يستفزُّ بصره قلبه البرق، والمراد بالبرق الشخص المعظَّم، ذو الشَّأن العالي كالملوك، وكبار التجَّار، ونحوهم كما تقدَّم؛ فهو لا يستخفُّه أحد هؤلاء فيلازم بيته، ويمتزج معه، ولا يرضى أن يكون أحد ممَّن على وجه الأرض منعِمًا عليه، ولكنِّي إذا اضطررت إلى مخالطة هذا الصِّنف من النَّاس، وملازمتهم لم أجعل الدُّنيا همِّي، ولا بغيتي، ولا منتهى قصدي، ومن كانت هذه طويَّته، وأصل نيَّته؛ فهو دائم الفكر في طريق الوصل إلى مقصده، بالكلام المنمَّق، والفعال الجميل المُزيَّن، وغير ذلك ممَّا يظلُّ به، مشغول الفكرة في تحقيقِه، كالَّذي يبحثُ عن طريقِه صاعدًا ونازلًا، منجدًا أي متَّجها إلى جهة النَّجد، أو مُتهمًا أي متَّجهًا جهة التَّهائم، وهذا يدلُّ على شدَّة انشغال قلبه، وتحيُّله لنيل مصالح دنياه، وإن تضرَّر دينه، أو أذلَّ علمه، أو أهان نفسه.

يقول - رحمه الله تعالى-: وأنا لا أخالط، ولا ألازم إلَّا مَن لا أَغَصُّ بذكره عند حسَّادي؛ فلا يجدون عليَّ فيه مطعنًا إذا قلت: (أعطاني فلان، وأحسن إليَّ)، وهذه صفة أهل العدل، والزُّهد، وكرام الأخلاق، الَّذين لا يمنُّون بالعطاء، بل يرون قبول إحسانهم فضلًا عَليهم ممَّن أحسنوا إليه، وأكرموه؛ فالمنَّة له! لا لهُم؛ فهذا الصِّنف هم عيبتي، وأهلٌ لصحبتي.

وكَـم طَالِـبٍ رِقِّـى بـنُعمَاهُ لَم يَصِـل
إِلَيـهِ وإِن كَـانَ الـرَّئيسَ المُعَظَّـمَا[١]
وكَـم نِعمَـةٍ كَانَـت عَـلَى الحُـرِّ نِقمَـةً
وكَـم مَغـنَمٍ يَعتَـدُّهُ الحُـرُّ مَغرَمَـا[٢]

(١) يذكر - رحمه الله تعالى- أنَّه كثيرًا ما سعى الكبراء إلى الإنعام عليه، وقصدُهم أن يقيِّدوه بإحسانهم إليه!، وإكرامهم له؛ فينتقل من حال الشَّريف بعلمه، العزيز بفضله إلى رقيقٍ لا يُحسن إلَّا الخدمة، وإزالة الأَذى؛ وهم لم يصلوا معه إلى هذا الحال، ولن يصلوا؛ لأنَّه لازال يرُدُّ ذلك الإحسان، ولا يقبله، وينصرف عنه، وإن كان من الرئيس المعظَّم، والجليل المقدَّم ! .
تنبيهٌ: وقع في «الدِّيوان» (ص١٢٧)، هكذا: (طالب ديني)، وهو تحريف، والصَّوابُ (طالب رقِّي) كما أثبتُّه لك، والله هو الموفِّق .

(٢) يذكر - رحمه الله تعالى- أنَّ الإنسان - كما قيل- (عبدُ الإحسان)، وكم من عزيز النَّفس، أَبيِّ الطَّبع صار عبدًا رقيقًا، يتمندل به الكبراء! بسبب قبوله إحسانهم؛ فهانَ، وأهان علمَه!، وفضله، وأذلَّ لهم نفسه، وصار لهم عبدًا مطيعًا، وكالكلبِ ذليلًا، يُحسنُ البصبصة، وتحريك الذَّنب!؛ لأنهم أحسنوا إليه بالإحسان العظيم، والنَّوال الكثير؛ ولهذا فكم من نعمة جزيلة انقلبت إلى هوان، وذلَّة ذليلة، وصارت على حرُّ النَّفس نقمةً لا نعمة، ومغرمًا لا مغنمًا.

وَلَمْ أَبتَـــذِل فِى خِدمَـــةِ العِلـــمِ مُهجَتِـــى
لِأَخــــدُمَ مَــــن لَاقَيـــتُ لَكِـــن لأَخــــدَمَا
أَأَشـــقَى بِـــهِ غَرسًـــا وأَجنِيـــهِ ذِلَّـــةً
إذًا فَاتِّبَـــاعُ الجَهـــلِ قَـــد كَـــانَ أَحزَمَـــا[1]

(١) يذكر - رحمه الله تعالى- في هذين البيتين أنَّه أفنَى شبابه في طلب العلم النَّافع، وتحصيله، وتفهُّمه، والرِّحلة له، والقراءة على الأشياخ، والتَّصنيف فيه، وقد ذكر مترجموه أنه: (**طاف في صباه الأقاليم، ولقي العلماء**)، ولاقى في سبيل ذلك ألوانًا من المشاقِّ، وصنوفًا من المتاعب، والعناء، والعنت؛ لخدمة دين الله تعالى، ونشر العلم في أهله، وطلَّابه، لا لأجل أن يخدم بالعلم الملوك، والتُّجَّار، والكبراء، والأثرياء، ويتزلَّف إليهم بالعلم، ويجعل العلم سبيلًا له إلى فتات موائدهم، وبقايا طعامهم، وسؤر أشربتهم!، واستعار لذلك استعارة لطيفة بمن يَجهَد في حراثة مزرعته، وبَذرها، وسَقيها، ورعاية زرعه، ويمضي في ذلك الدَّهر الطَّويل، ويُفنِي في ذلك المال الكثير، ويعاني التَّعَب الجَمَّ الكبير، ثمَّ إذا جاء وقت جناء الثمار، وحصادها جاء من لا يعرف ما بُذل في زرع هذه الثمار؛ حتَّى أينعت؛ فيأخذ ثمارها، ويعبثَ بها!؛ كيف ترى يكون الأمر على هذا الزارع؟!، وهكذا صاحب العلم المتزَلِّفُ بعلمه للملوك، والكبراء .

ثمَّ بيَّن أنَّ من كان هذا قصده، وتلك فعاله بالعلم الشَّريف؛ فالأحرى به، والأولى له، بل هو الحزم عند كلِّ عاقل أن يكون جاهلًا، لم يطلب علما، ولا درى فهمًا، ولا رفع قلمًا، بل أُحيمقًا فَدمًا، ثم يصنع مع أرباب الدُّنيا فِعلتَهُ تلك، ولا يدنِّسُ شرف العلم؛ ليصير خادمًا، وهو الرَّئيسُ المخدوم، والسُّلطان حقيقةً الطَّاعمُ لا المَطعُوم .

وقولُه: (**لأَخدُمَ مَن لَاقَيتُ لَكِن لأُخدَمَا**) **هذا حاصلٌ، غيرُ مقصود بالذَّاتِ**؛ فالعادة في الدُّنيا أن النَّاس يحبُّون أهل العلم، ويخدمونهم بأنواع النَّفع، ويعدُّون ذلك من جِليل القُرَب، هذا ما جرت به الحياة في كلِّ زمانٍ، **وهو من تَوابع إكرام الله تعالى، ورَفعه أهلَ العلم، وأهلُ العلم لا يقصدون هذه الخدمة، ولا يطلبونها، ولا تلتفت إليها قلوبهم، ولا يقصدونها**، بل يمتنِعونَ عنها مع حصولها ولا بدَّ!، هذا مقصوده - رحمه الله تعالى-؛ ولهذا المَعنى نظائر كثيرةٌ

وإنِّي لَـــرَاضٍ عَـــن فَتًـــى مُتَعَفِّـــفٍ
يَـــرُوحُ ويَغـــدُو لَـــيسَ يَملِـــكُ دِرهَمَـــا
يَبِيـتُ يُرَاعِـي الـنَّجمَ مِـن سُـوءِ حَالِـهِ
ويُصـــبِحُ طَلقًـــا ضَـــاحِكًا مُتَبَسِّـــمَا
ولا يَســـأَلُ المُثـــرِينَ مَـــا بِـــأَكُفِّهِم
ولَـــو مَـــاتَ جُوعًـــا عِفَّـــةً وتَكَرُّمَـــا[1]

في الكتاب، والسنَّة؛ فتدبَّر، وقَد أبدع الإلبيريِّ (ت٤٦٠) حين أشار إلى هذا المعنى في معاني أخر في نصيحته الغرَّاء لابنِه أَبي بكر، ومنها:

يَنَالُـكَ نَفعُـهُ مَـا دُمـتَ حَيًّـا ... ويَبقَـى ذِكـرُهُ لَـكَ إن ذَهَبتَـا

(١) يذكر - رحمه الله تعالى- في هذه الأبيات الثَّلاثة صورة مشرقةً، وضَّاءةً، جميلةً، بهيَّةً في غاية الجلال، والهيبة، وهي صورة طالبِ العلم النَّافع، الرَّحَّالُ في طِلبته، الفقيرُ المعدم في غُربتِه، أَبيُّ النفس، متَّسخُ الثِّياب بالنِّقس، قد جعل شِعارَه التعلُّق بالخالق، ودثَارَه الاستغناء عن الخلق، مقبلٌ على شأنه، منصرفٌ لوجهِه، مجتهدٌ لا يضيِّع زمانَه في غير ما رحل إليه، يغدو في صبحه باكرًا لطلب العلم النَّافع، ويروح، وهو معدمُ المال، فارغ الجيب، لا يكاد يجد ملء بطنه، قد توسَّد الحصبَاء، طاويًا كِشحَ بطنِه، يرعى نجوم السَّماء، ويصبح وكأنه أغنى النَّاس!، بل هو أغناهم!، تأنف نفسه سؤال الأثرياء، أو التعرُّض للأغنياء، قد شمخ بأنفه في أطمَاره، واعتزَّ عن دنيا النَّاس بأحاديث الرَّسول، وعلومه، وأخباره، وإن مات جوعًا؛ لعظيم عفَّته، وسُموِّ نفسه، ولله درُّ هؤلاء الطُّلَّاب من أهل الحديث، والأثر، وصدقَ إمامُ السُّنة أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى-؛ إذ وصفهم - وهو بهم أخبر-؛ فقال: «**قوم آثروا قطع المفاوز والقفار، على التنعُّم في الدِّمن والأوطار، وتنعَّموا بالبؤس في الأسفار، مع مساكنة العلم والأخبار، وقنِعوا عند جمع الأحاديث والآثار، بوجود الكسر والأطمار**» رضي الله عنهم، ورحمهم، ورفع درجاتهم، وهاك مثالًا بابن أبي حاتم (ت٣٢٧)؛ إذ يقول: «كنا بمصر سبعة

يَقُولُـونَ: زِنْـدُ العِلْـمِ كَـابٍ فَـإِنَّمَا
كَبَـا حِـينَ لَمْ تُحْـرَسْ حِمَـاهُ وأَظْلَـمَا[1]

أشهر، لم نأكل فيها مرقة، نهارنا مقسَّم لمجالس الشيوخ، وبالليل للنَّسخ، والمقابلة؛ فأتينا يوما أنا ورفيق لي شيخا، فقالوا هو عليل، فرأينا في طريقنا سمكة أعجبتنا؛ فاشتريناها فلما صرنا إلى البيت حضر وقت مجلس بعض الشيوخ؛ فمضينا فلم تزل السَّمكة ثلاثة أيَّام!، وكاد أن يتغيَّر؛ فأكلناه نيئًا!، لم نتفرَّغ نشويه!، ثم قال: (**لا يستطاع العلم براحة الجسد**)»، وما قصَّة (**المحامد**) عنَّا ببعيد ! .

وانظر: «معرفة علوم الحديث» (ص٣٧/ ط دار إحياء العلوم)، و«تاريخ بغداد» (٢/ ٥٤٨/ ط بشَّار)، و«التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد» (ص١١٨-١١٩)، و«تاريخ الإسلام» (٢٤/ ٢٠٨/ ط دار الكتاب العربي) .

(١) قال الخليل في «العين» (٥/ ٤١٧): «وكبا الزِّند يَكبُو كَبواً، أي: لم يُور، وأَكبَى إكباءً لغةٌ»، وقال أبو منصور الثعالبي في «فقه اللغة وسر العربية» (ص٢١١): «إذا لم يُخرِجِ الزَّندُ النَّارَ عِندَ القَدحِ قِيلَ: كبَا يَكبُو»، وقال الزمخشري في «أساس البلاغة» (٢/ ١٢١): «وزند كابٍ: لا يرى، وكبا زنده، وفلان (كابي الزِّنَّاد) نقيض وارى الزِّناد» .

وهذه استعارة لطيفة لحال من لا يجد أثر العلم، ولا نفعَه، ولا بركتَه، ولا فوائدَه التَّي دلَّت عليها النُّصوص الكثيرة؛ بل يجد نقيض ذلك من الازدراء، والاحتقار، والإهانة، والإذلال؛ وهو في ذلك متعجِّب من انعكاس القضيَّة، وتغيُّر الأحوال، ووقوعه في نقيض ما جاءت به النُّصوص الدَّالَّة على رفعة أهل العلم، وشرفهم، وأنَّهم ورثة الأنبياء، وهي درجة في النَّاس عالية منيفة؛ ولكنَّه يرى الحال على ضدِّ ذلك، وقد بيَّن النَّاظم سبب ذلك كما قال جلَّ وعلا: ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران]؛ وأنتم لم تحرسوا حمى العلوم النَّافعة الشريفة عن أعدى أعدائها وهو طلب الدُّنيا بها؛ فشوَّهتم وجه العلم المشرق، الوضَّاح، وقبَّحتم صورته الجميلة؛ حتَّى أظلم من سوء مقاصدكم به، ورديء فعائلكم .

تنبيهٌ: وقع في بعض المصادر، واعتمده جامع «الدِّيوان» (ص١٢٧)، هكذا: (جد

وَلَــو أَنَّ أَهــلَ العِلــمِ صَــانُوهُ صَــانَهُم
وَلَـــو عَظَّمُـــوهُ فِي النُّفُـــوسِ لَعُظِّـــمَا[(١)]

العلم)، وهو تصحيف، والصَّوابُ (زند العلم) كما أثبتُّه لك، والله هو الموفِّق .

(١) يقول – رحمه الله تعالى– : لو أنَّ أهل العلم أي العلماء صانوا العلم لصانهم العلم، وصيانة العالم العلمَ: ملازمته التقوى، وملازمة طاعة الله به، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واجتناب المعاصي، والذُّنوب، واجتناب الحرص على المال، والطمع في الدُّنيا، ومن دقائق (صيانة العلم) ما قاله الإمام ابن شهاب الزهري (ت١٥٢)؛ فأحسن: (**هوانٌ بالعلم أن يحمله العالم إلى بيت المُتعلِّم**)! وقال حمدان بن عليٍّ الأصبهاني: كنت عند شريك فأتاه بعض أولاد الخليفة المهدي؛ فاستند إلى الحائط، وسأله عن حديثٍ؛ فلم يلتفت إليه، وأقبل علينا، ثم عاد؛ فعاد شريك بمثل ذلك؛ فقال ابن الخليفة: أتستخف بأولاد الخلفاء؟!، قال: (**لا، ولكنَّ العلمَ أجلُّ عند الله من أن أضيِّعه**)؛ فجثى على ركبتيه؛ فقال شريك: (**هكذا يُطلب العلم**) ! .

فإذا صان أهل العلم (العلم النَّافع) عن المقاصد السيِّئة، والأفعال المُشينَة، وعظَّموا العلم في نفوسهم، وأدركوا بقلوبهم حقيقة قدره، وجليل مكانه، صانهم الله تعالى فصاروا معظَّمين موقَّرين عند الله تعالى، وعند النَّاس في الدُّنيا وفي الآخرة .

ولعلَّ أبا الحسنِ الجرجاني أخذ معنى هذا البيت الفائق من قَولةِ الإمام الرَّبَّاني الفضيل ابن عياض (ت١٨٧) – رحمه الله تعالى–؛ حين قال : «**لو أنَّ أهل العلم أكرموا أنفسهم، وشحُّوا على دينهم، وأعزُّوا هذا العلمَ، وصانُوه، وأنزَلُوه حَيث أنزله اللهُ تعالى؛ إذَن لخضعَت لهم رقاب الجبَابرة، وانقاد لهم النَّاس؛ فكانوا لهم تبعًا، ولكنَّهم ابتذلوا أنفسهم، وبذلوا علمهم لأبناء الدُّنيا؛ فهانُوا، وذلُّوا، ووجدوا لغامز فيهم مَغمزًا؛ فإنَّا لله وإنا إليه راجعون، أعظم بها مصيبة!**» انتهى [«ربيع الأبرار ونصوص الأخيار» (٤/ ٣٥/ ط مؤسسة الأعلمي بيروت)].

وجزم الأديب الكاتب المنشيء الملقَّب بغرس الدَّولة أبو المَعالي محمد بن الحسن ابن حمدان البغدادي (ت٥٦٢) في كتابه «التَّذكرة الحَمدُونيَّة» (٢/ ٩٦-٩٧/ ط دار صادر بيروت) أنَّ القاضي أبا الحسن الجرجاني نظر إلى معنى كلام الفضيل بن عياض؛ فقال أبياته المشهورة .

وَلَكِـــــنْ أَهَـــانُوهُ فَهَـــانَ وَدَنَّسُـــــوا
مُحَيَّـــــاهُ بِـــالأَطْمَاعِ حَتَّـــى تَجَهَّـــمَا[(١)]

فائدة : قال التَّاج السبكي (ت٧٧١) – رحمه الله تعالى– في «معيد النعم ومبيد النقم» (ص٥٩/ ط مؤسَّسة الكتب الثقافية) معلِّقًا: «فلقد صدق هذا القائل: (**لو عظَّموا العلم لعظَّمهم**)، وأنا أقرأُ قوله: (**لعُظِّمَا**) بفتح العَين؛ فإنَّ العلم إذا عُظِّم يعظَّم، وهو في نفسه عظيم؛ ولهذا أقول: (ولكن أهانوه فهانوا)؛ ولكن الرواية: (فهانَ)، و(لعُظِّما) بضمِّ العين، والأحسن ما أشرتُ إليه» انتهى، واعتمد هذا الضَّبط العالِم الشَّيخ بكر أبو زيد (ت١٤٢٩) – رحمه الله تعالى– في «حلية طالب العلم» (ص١٩٢/ مع المجموعة)، وتعقَّبهُ في هذا العلَّامة المحقِّق محمد بن عثيمين (ت١٤٢٢) – رحمه الله تعالى– في شرحه لـ«الحلية»؛ فقال: «هذا الضَّبطُ فيه نظرٌ، والظَّاهر: (**ولو عظَّموه في النفوس لعُظِّما**) يعني: لكان عند النَّاس عظيما، لكنهم لم يعظِّموه في النُّفوس، بل أهانوه، وبذلوه لكل غال، ورخيص» انتهى كلامه، وهو كما قال – رحمه الله تعالى– .

(١) الدَّنَس الوسخ، ومنه دَنِس الثوب من باب (علم) دنسًا أي: توسَّخ، ومحيَّاه أي: وجه العلم .

يقول – رحمه الله تعالى– : ولكنَّ الحال أنَّ من أهل العلم من أهانَ العلمَ!، ولم يعظِّمه حقَّ تعظيمه، ولا أدرك مكانة العلم، وإن حملَه؛ ولهذا أهان العلم حين جعله سبيلًا إلى تحقيق مطامعه، وبابًا لأخذ يسير الدَّنيا، ولُعَاعتِها؛ فلمَّا أهانوا العلم، وابتذلوه عند أهل الدُّنيا، والملوك، والأثرياء، والوجهاء، وأرادوا الدُّنيا، هانوا في أنفسهم؛ لأنَّ فخرهم، وفضلهم إنَّما هو بتعظيمهم العلمَ؛ فإذا أهانُوا العلم، سقطَت مكانة العلم عند كثير من النَّاس؛ فنظروا إلى حملته نظرةَ احتقارٍ، وازدراء، وعاد وجه العلم كالحًا، مكروهًا، قبيحًا .

يقال: (تجهَّمني بوجهه: أي لقيني بوجه باسر، عبوس، قبيح، كريه، قَالَ الليث: (وتجهَّمتُ لفُلَان: إذا استقبلتُه بوَجه كَريه)، فيحتمل أنه أراد: أنَّ العلم صار غاضبًا عليكم، ساخطًا من مطامعكم؛ إذ أهنتموه؛ فهو يستقبلكم بالوجه الكريه العبوس، والأظهر في المراد ما قدَّمتُه، وهو: أنَّكم بإهانتكم للعلم، صار منظر وجه العلم، ومحيَّاه الجميل عند النَّاس

قبيحًا، مكروهًا، عبوسًا، محتقرًا بخلاف ما كان عليه حال السَّلف الماضين، والأئمَّة الصَّالحين؛ هذا محمَّد بن أسلم الطوسي (ت٢٤٢) - رحمه الله تعالى - لَمَّا مات، وكان من العلماء الربَّانيين الزُّهَّاد ، لم يخلِّف سوى كساءَه، ولُبده، فوضعوهما على نعشه، وإناءً للوضوء تصدَّقوا به؛ فكان النِّساء على السُّطوح يقلن في جنازته: «**هذا العالم الَّذي خرج من الدُّنيا، وهذا ميراثه الَّذي على جنازته، ليس مثل علمائنا هؤلاء عبيدُ بطونهم، يجلس أحدهم للعلم سنتين، أو ثلاثا؛ فيشتري الضِّيَاع، ويستفيد المال**» ! .

وانظر: «تهذيب اللغة»، و«تاج العروس» [جهم]، و«مجموع رسائل ابن رجب» (١/ ٥٥) .

علَّق شيخنا العالم الصَّالح المعمَّر المبارك عليُّ بنُ يحيى البهكليُّ - حفظه الله - على هذا البيت؛ فقال: (**ولا سيَّما في هذا الزَّمان**) ! .

فائدة :

قال تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي (ت٧٧١) في «معيد النعم ومبيد النقم»[(١)] (ص٥٩-٦٠):

«وقد نحا شيخ الإسلام تقيُّ الدين ابن دقيق العيد - رحمه الله تعالى- نحو هذه الأبيات؛ فقال:

يَقُولُونَ لي: هَلَّا نَهَضتَ إِلَى العُلَا ... فَمَا لَذَّ عَيشُ الصَّابرِ المُتَقَنِّعِ

وهَلَّا شَدَدتَ العِيسَ حَتَّى تُحِلَّهَا ... بمِصرٍ إِلَى ظِلِّ الجَنَابِ المُرَفَّعِ

فَفِيهَا مِنَ الأَعيَانِ مَن فَيضُ كَفِّهِ ... إِذَا شَاءَ رَوَّى سَيلُهُ كُلَّ بَلقَعِ

وفِيهَا قُضَاةٌ لَيسَ يَخفَى عَلَيهِمُ ... تَعَيُّنُ كَونِ العِلمِ غَيرَ مُضَيَّعِ

وفِيهَا شُيُوخُ الدِّينِ والفَضلِ والأُلَى
يُشِيرُ إِلَيهِم بِالعُلَا كُلَّ إِصبَعِ

وفِيهَا وفِيهَا والمَهَانَةُ ذِلَّةٌ
فَقُم وَاسعَ واقصِد بَابَ رِزقِكَ واقرَعِ

فَقُلتُ: نَعَم أَسعَى إِذَا شِئتُ أَن أَرَى
ذَلِيلًا مُهَانًا مُستَخَفًّا بمَوضِعِي

---

(١) وانظر: «طبقات الشافعية الكبرى» (٩/ ٢٢٢-٢٢٣) .

وأَسعَى إِذَا مَا لَذَّ لِي طُولُ مَوقِفِي ... عَلَى بَابِ مَحْجُوبِ اللِّقَاءِ مُمَنَّعِ

وأَسعَى إِذَا كَانَ النِّفَاقُ طَرِيقَتِي ... أَرُوحُ وأَغدُو فِي ثِيَابِ التَّصَنُّعِ

وأَسعَى إِذَا لَمْ يَبقَ فِيَّ بَقِيَّةٌ ... أُرَاعِي بِهَا حَقَّ التُّقَى والتَوَرُّعِ

فَكَم بَينَ أَربَابِ الصُّدُورِ مَجَالِسٍ[1] ... تُشَبُّ[2] بِهَا نَارُ الغَضَى[3] بَينَ أَضلُعِي

وكَم بَينَ أَربَابِ العُلُومِ وأَهلِهَا ... إِذَا بَحَثُوا فِي المُشكِلاتِ بِمَجمَعِ

مُنَاظَرَةٍ[4] تَحمِي النُّفُوسَ فَتَنتَهِي ... وقَد شَرَعُوا فِيهَا إِلَى شَرِّ مَشرَعِ

إِلَى السَّفَهِ المُزرِي بِمَنصِبِ أَهلِهِ ... أَوِ الصَّمتِ عَن حَقٍّ هُنَاكَ مُضَيَّعِ

فَإِمَّا تَوَقِّي مَسلِكَ الدِّينِ والتُّقَى ... وإِمَّا تُلَقِّي غُصَّةَ المُتَجَرِّعِ



(١) هكذا ضبطها لي شيخُنا العالِمُ اللُّغويُّ البارع عبد الرَّحمن بن عوف كوني - حفظه اللهُ تعالى-، وكَتبَ بخَطِّه: «مَجَالِسٍ» مُضافٌ إليه، والمُضاف: «كَم» الخبريَّة للتَّكثير؛ ففَصَلَ بَينَ المُضَاف والمُضَاف إلَيه للضَّرورَة الشِّعريَّة» انتَهى تَعليقُه.

(٢) هكذا ضبطها لي شيخُنا عبد الرَّحمن بن عوف كوني - حفظه اللهُ تعالى-، وكَتبَ بخَطِّه: (تُشَبُّ: تُوقَدُ).

(٣) جاء في «تهذيب اللُّغة» (٨/ ١٤٧): «نَار الغضى، وَهُوَ من أجوَد الوقودِ عِند العَرَب» انتهى.

(٤) هكذا ضبطها بخَطِّه شيخُنا عبد الرَّحمن بن عوف كوني - حفظه اللهُ تعالى- بالكَسر، والتَّنوين على ما تقدَّم من توجيهه فصل الإضافة لضرورة الشِّعر، وهي فائدَةٌ لطيفَةٌ.